

فؤاد المدينة

كرم صابر

وعد

فؤاد المدينـة

روايـة

كرم صابر

رواية : فؤاد المدينة
المؤلف: كرم صابر
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٣٤٩٠
الترقيم الدولى: ٩٧٨-٩٧٧-٥١١٣-٧٥-٧
وعد للنشر والتوزيع
٣ محمد حلمى إبراهيم – متفرع من شارع شامبليون – وسط البلد – القاهرة.
تليفاكس: ٠٢٥٧٤٥٨٧١

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

هذه الحكاية مستوحاة من رسالة حائرة ، تركتها صديقة غالية فجر يوم غريب ، فوجب إهداء عملي المتواضع إلى قلبها الرائع .

ذبول

(١)

من عاش فى هذه الدنيا أكثر سعادة منى ؟ لا أعتقد أن إنسيًّا أو جنيًّا سيكون مبتهجًا مثلى ، الدنيا أعطتنى كل شىء ؛ الزوجة الصالحة ، والأولاد ، والعزوة ، والإخوان الطيبين ، والأصدقاء الأوفياء ، والجيران الحنونين ، والعمل الصالح .

أعيش أيامى كما أرغب ، مملوءًا بالامتنان والرضا والانطلاق الذى يعشش بروحى ، أشكر الرب صباحًا ومساءً على نعماته التى لا تحصى .

فى شقتى الهادئة لى حجرة مستقلة أستمتع فيها بنفسى ، عندى ابن تربى على الأدب والإخلاص ، يلصق على حوائط حجرته صور مشاهير يعشقهم ، ويمتلك لاب توب يسمع عليه أجمل الأغانى ، وتتزين حجرة ابنتى بالألوان المبهجة والروائح الطيبة ، تجلس زوجتى المخلصة بالصالة بين الحجرات الثلاث والمطبخ والحمام ، تؤدى واجبها فى خدمتنا بحب ودأب ، كأننا أرواح منزلة من السماء خلقت من خلطة مباركة ، عندما نشفق عليها ونحاول مساعدتها ، تغضب وتقول: " سعادتى أن أحس برضاكم عنى ".

اختارتها أمى قبل موتها بناء على توصية إحدى قريباتها التى تجاور شقتهم بالمدينة ، دائمًا تشكر إخلاص أسرتها الصالحة ، أسمعها تطرب فى ذِكْرِ محاسن والد زوجتى وتقول : " راجل فاضل وذريته كلها من الأطهار " ، لم أحس بصدق قولها إلا بعد أن عاشرت " أمينة " ، وأنجبت منها أبنائى ، تتفانى فى تعليمهم الحب والصدق والإيمان والطريق المستقيم ، أعود مسرعًا من عملى أستمتع بالحب فى بيتى النظيف المرتب الذى يمتلئ بروائح البنفسج والعطر ، أدخل شقتى ، أخلع حذائى وأضعه بالجزامة المنمقة ، تساعدنى " أمينة " على خلع الشراب وتضعه بالحمام فى كيس الملابس التى تحتاج للتطهير ، أدخل حجرتى ، وأجد البيجامة المكوية على السرير وعطر الفل يملأ جنباتها الواسعة .

تزيح عنى ملابس الشغل ، وتجهز الحمام لأستحم وأرتدى ملابسي ، تتركنى أنام على سريرى قليلاً ، ثم توقظنى بعد تجهيزها الغداء الشهى ، أجتمع وأبنائى علي المنضدة حول

طعامها ، نتقاسم جميعًا أطعم خبز ساخن ، وأنواعًا سرية من الطعام المعجون بالحب ، نضحك ونبتسم ونتسامر حول الامتحانات والأصدقاء والأهل ، نفتح التلفاز على القنوات التى تعرض الأفلام الرائعة ، تتركنى وتدخل المطبخ فى هدوء ، تغسل الأطباق والحلل وتجهز الشاى بالنعناع فى أكوابنا التى اختارتها بعناية ، ثم تدخل الحمام لتستحم بعد أن تضع امامنا أنواع الفاكهة المختلفة .

يداعبنى ابنى " أمجد" ويطلب منى التوقيع على نتيجة امتحانات الشهر التى تفوق فيها على نفسه ، متجاوزًا الدرجات النهائية ، وتبهرنى " ريم" بألوان كراسات الرسم والموسيقا والألعاب التى تسلمتها من المدرسة ، ونسجت فى صفحاتها أحلى النغمات ، يتركاننى أمام التلفاز ويدخلان حجرتهما ليستذكرا دروسهما ، تاركين همس العصافير يحيطنى من كل اتجاه .

تنادى " أمينة " علىَّ بصوت مملوء بالأمانى لأدخل الحجرة ، أغلق التلفاز ، وأجدها فى أبهى صورها ، تفتح الكاسيت على أغانى المحبة ، وتسامرنى حول أمور الدنيا ، وأذوب فى قلبها وجسدها ساعاتٍ طويلة .

تقوم مبتسمة من جوارى ، تدخل الحمام وتغتسل ، وتعود بأكواب العصائر المختلفة ، تبهج " أمجد " و " ريم" بأحلى كلمات الحب وهى تفتح حجرتهما لتطمئن عليهما ، يغردان باستمرار ليبادلا الأم الملائكية حبها وتفانيها فى عشقهما .

تطلب منى النزول لأصلى وأجالس الجيران والأصدقاء ، وأتونس بصحبتهم وطرائفهم.

نهاية كل يوم ، تصطحبنى لنسهر فى بيت احد إخوتى أو أصدقائى أو زميلاتى أو زملائى بالعمل ، تبتهج المخلصة لتخفف عنى وتجعلنى أسعد مخلوق على وجه الأرض .

(٢)

لن يصدقنى أحد إذا قلت إننى بالفعل أعيش أجمل أيام حياتى ؛ فأتوبيس المصنع الذى ينتظرنى صباح كل يوم أمام منزلى وينقلنى مع العمال حتى مدخله الواسع المملوء بالزهور والأشجار ، يظل بداية ليوم رائع ، يغنى السائق بوجهه البشوش ويدندن وهو يسير بالشوارع المؤدية إلى المصنع ، تتزين الأرصفة بالورد وأشجار الفاكهة ، الغريب أننى لم أرَ السائق يضع يديه على زر الكلاكسات ابدا ، ليستمر الشجن الصادر من مذياعه يصدح بصوت مغنية التى تغرد للصبح قائلة : " يا صباح الخير ياللِّى معانا " .

ننزل من الباص ، يدخل العمال عنابرهم بعزيمة وإصرار ، لإنتاج ملابس ناصعة ممتازة ، غزلوا قطنها بحب ، بينما أتجه إلى مكتبى بالإدارة ، أسجل اليوميات فى دفاتر الحسابات والوارد والمنصرف .

يلازمنى " حسن" صديقى فى الحجرة ، نعمل دون كلل ، يأتينى عم " سيد" بالشاى والقهوة والحليب وكل أنواع المشروبات ليبهج جلستنا ، تمدنا مشروباته بالعطاء المتفانى .

يتهامس معنا عن ليالى العشق فى حضن زوجته ، يحكى بفخر عن أبنائه المتعلمين ، قائلاً : " أصبح الكبير رجل صناعة ضالع فى عالم المستقبل " ، يكافئنا صاحب المصنع بهدايا وحوافز تزيد على حاجتنا ، الجميع يحلم بأن يستكمل حياته داخل أسوار المصنع التى تعلوها أشجار الصنوبر والتوت والرمان ، رغم ذلك فحين تدق الساعة الثانية يكون الباص والسائق فى انتظارنا لإعادتنا إلى منازلنا بالمدينة ، لنستمتع بباقى النهار والليل وسط بشر دأبوا على الضحك ليل نهار ، في النهاية أضحت رحلتى من المصنع إلى المنزل والعكس معزوفة أخرى لعشق الحياة ٠

يحل صاحب المصنع الخلافات وديًا لتحسين ظروف العمل والعمال ، لا يوجد بمصنعنا مكان للواسطة أو الرشوة أو الفساد أو الاختلاس ، لا يمر أسبوع إلا ويفاجئنا صاحب المصنع بإقامة احتفال بهيج ، يعرض فيه ممثلون أجلاء أدوار الخير ، ويغنى فيه مطربون ومطربات أعذب أغانى ٠

حينما نسمع عن الشرور المنتشرة فى المدن الأخرى نتعجب ونقول :" كان الله بعونهم ، كيف يعيشون ويتكيفون مع هذه المظالم ؟" وحين يأتى بعض ممثلى الدولة الأطهار لمصنعنا ليفتشوا على جودة منتجنا وحقوق العمال ، تسرد اللجنة قراراتها لتعلن نجاحنا لالتزامنا بكل المعايير الإنسانية فى إنتاجنا ، تكتب دائمًا التقارير فى صالحنا ، والشىء الغريب أنهم كانوا يرفضون تناول كوب من الشاى أو المياه حتى لا يصاب تقريرهم بخدش الانحياز .

كالملائكة ينتقلون بين العنابر والمخازن يدونون تقدمنا ومجدنا ، أرسلهم الله ليبلغونا الوصايا العشر لضمان سعادتنا ، دائمًا يقولون ملاحظاتٍ كثيرة حول ضرورة توسيع منافذ الهواء ، والكشف الطبى اليومى على العمال ، وزراعة المزيد من الزهور حول العنابر وفى الأماكن المفتوحة ؛ لأن رائحة الورد تساعد العمال على المزيد من الإنتاج بحب .

وللتأكيد على ما أقول سأحكى بنفسى واقعة حضرتها بنفسى ؛ ففى أحد المواسم انخفضت الأرباح بدرجة رهيبة ، وخسر المصنع ملايين الجنيهات نتيجة الكساد بالأسواق ، اجتمع صاحب المصنع نهاية الموسم بآلاف العمال وعرض عليهم حجم الخسائر ، فصرخ العمال قائلين : " لانريد أرباحًا هذا الموسم " ، وقف السيد " نضال" كبير عمال النقابة قائلاً : " المصنع ملكنا وأنت صاحب عمل كفء ، سنعمل بدون مرتب حتى تعاود مكاسبك ، ويقف المنتج على رأسه بالأسواق مرة أخرى " .

لكن السيد " شريف " صاحب المصنع قاطعه وقال بصوت عالٍ بالمؤتمر : " لن نخصم مليمًا واحدًا من أرباحكم وحوافزكم وأجوركم ، لن تدفعوا ثمن انهيار الأسواق ، لستم مسئولين عن قراراتنا وأسواقنا " ، بكى الجميع ، وهتفوا لصاحب المصنع ، وقام مسئولو الدولة ليؤكدوا نبل السيد " شريف" وإخلاص العمال ، وأصدر رئيسهم قراره بالتزام الدولة بكل الخسائر التى لا ذنب للإدارة أو العمال فيها .

الجميع يتفانى ليقدم أجمل ما عنده ، أصبحنا عائلة جديدة مترابطة داخل المصنع ، نبتهج لزواج أحد أبنائنا ، أو لإنجاب زوجات بعضنا ابنة جميلة أو ابنًا رقيقًا ، نقدم الهدايا بشكل دائم ، نبدع فى نطق أجمل الكلمات بنبرات رائعة تظهر أجمل ما فينا .

(٣)

شوارع مدينتا تتوسطه الحدائق ، ويقوم موظفو البلدية بزراعة الحوارى الضيقة بالورد ، لم يكن هناك منزل إلا ومحاطًا بالزهور وأشجار السيسبان ، وتمتلئ مداخله بمزروعات غريبة خضراء تعطر الجو برائحة النعناع والريحان .

فى أيام كثيرة أخرج مع " وافى " وزوجته " وفية" لنجلس تحت الأشجار التى تملأ الميادين الواسعة ، نأكل معًا ونشرب العصائر ، تسعدنا وجوه موظفى البلدية وفرقهم الموسيقية وهم يعزفون أحلى الأغانى والألحان بقلب المدينة .

رغم خفوت الصوت ، لكنك تسمعه فى كل أرجاء المدينة وشوارعها ، خاصة إذا ما أنصت للفراغ والتأمل ، يقدمون العصائر والمشروبات الساخنة ، وينظفون باستمرار الحدائق لتظهر مدينتنا كل عام كأروع جنة خلقها الله .

يرتدى رجال الدفاع المدنى زى المطافئ والإسعاف ، لحماية الأرواح والمبانى من الدنس ، تشاهد مركبتهم السريعة الجاهزة دائمًا للحضور قبل حدوث المكروه .

أضحت الحديقة التى تحيط بالنهر كالجنة تمتلئ بأشجار الفاكهة عن آخرها ، البنات والأولاد يجلسون بأجسادهم النضرة ملتصقين فى حب ليتعرفوا بأنفسهم على أروع ما خلقه الله فينا .

تحس بانجذاب للحياة التى تملأ الهواء أينما سرت أو جلست أو نمت ، حتى مياه النهر النظيفة والباردة تتغنى فى دلال بألحان ناعمة لأمواجها ، يظهر الصيادون بمراكبهم الناصعة محملين بالأسماك التى ينتظرها الناس على مداخل السويقة ، تجلس نسوة ورجال يبيعون أسماكهم بحب ، الجميع يحاول الحصول علي أشهى الأسماك وأجودها ، يقيمون التجارب الحية على أفضل طعم ورائحة طهى ، تتذوق النساء السمك المطهو قبل شرائه ، تمتلئ وجوه الرواد بالرضا وهم يختبرون الطعم ، لم يكن يهم الثمن بقدر ما يهم الإحساس بجمال الطعم ولذته .

الجميع غرق فى الحب ، وأصر علي خروج افضل ما عنده حتى لو على حساب صحته وحياته وماله وأسرته ، المهم أن نملئ أرواحنا بالامتنان ، ونبادل الآخرين بأرق أحسيسانا .

فى قلب المدينة تظهر هيئة المصلحة الأهلية كمبنى ضخم مرتفع منفرد بطلاء أبيض فاتح ، تحس بأن حجراته واسعة ومريحة ، خصصت أدواره الثلاثة الأولى لعلاج السكان ، لا يوجد بالمستشفى إلا عدد قليل من العجائز والأطفال ، تشاهد الأطباء والممرضات كحوريات الجنة يتلهفون على التطبيب ، المهم كما يقول رئيس المستشفى أن نقضى على الألم.

يحتوى الدور الرابع والخامس على مكاتب استشارية تقوم بخدمة أبناء المدينة فى كل النواحى القانونية والمدنية ، يستقبلونك بحب ويقدمون لك العصائر والمياه الباردة ، يأخذون طلبك فى ثوانٍ ، وبسرعة البرق يجيبون عن أسئلتك ويوجهونك لتختار أنسب الطرق التى تبحث عنها .

يوقعون معك الأوراق لتذهب أنت لعملك ، بينما يتابع موظفوهم مصالحك لقاء أجر زهيد لا يزيد على عُشْرِ مرتبك .

زرعت حديقة كبيرة على أسطح مبنى الهيئة ، كى يستجم فيها الموظفون والرواد ، ويلاطفوا روح السماء المتسرسبة من بين ثمار العنب التى تتدلىفوق رؤوسهم، ويتذوقوا الطعم الخلاب وهم يتسامرون حول متع الحياة .

تنتشر بيوت العلم فى أجواء المدينة ، مساحات شاسعة ومبانٍ رقيقة أقيمت خلف أشجار تنضح بالعطر ، امتلأت فراغاتها بالملاعب المتنوعة وحمامات السباحة.

شيد العلماء فصول المدارس الواسعة وسط الحدائق ، لا تعلو المبانى عن دور واحد، خصصوا للموسيقا والرسم والمكتبة مبانى فسيحة مستقلة ، يدخل الأطفال والشباب حصص الدراسة وهم مبتهجون ويخرجون منها أكثر سعادة للمعلومات والرسومات والألعاب والألحان التى دخلت القلب والروح بتلقائية فاتنة .

أضحى المدرسون والمدرسات كالأنبياء ، يلبسون ملابس بيضاء خفيفة وتشع وجوههم بالنور ، يتحركون فى المدينة كالمرشدين الروحيين وكأنهم ملائكة لا يخطئون .

تنتشر بالمدينة المعابد والمساجد والكنائس وأماكن اللهو التى تقدم للمحتاجين الوصايا والهدايا والمشروبات لتخفف عنهم الملل.

لكن الشاهد بأن عدد زائرى هذه الأماكن لم يزد على المئات ؛ لأن الجميع تفرغ لإعطاء كل وقته للعمل والاستمتاع بالحياة .

أيام كثيرة نمت فيها مع جارى " وافى" بحدائق المدينة ، مستمتعين بالبراح الذى يملأ السماء الواسعة ، المقاهى أصبحت ملتقى جديدًا لمحبى الألعاب المسلية ، كان يشاركنا فى ليالى السمر صديقى " مخلص" ، يلازمنى كطيفى مع أسرته الممتنة والشاكرة لنعم الرب الكثيرة .

ظلت زميلتى الفاتنة "غالية" غريبة عنا ببحثها الدائم عن معنى الحياة ، ارتضت أن تظل رفيقة روحى ، تسعد بلقاء أسرتى وأسرة " وافى" و" حسن " زميلى بحجرة الإدارة بالمصنع ، " يجالسنا السيد " شريف" صاحب المصنع أيامًا كثيرة بحضور أسرته ، خاصة فى أيام الأعياد والأجازات بحديقة النهر الواسعة التى تمتلئ بأشجار الفاكهة.

أصبحنا إخوة ، ولم أحس أبدًا بفرق بينهم وبين أخى الكبير " عز" وأختى الصغيرة " عزيزة" ، كنا نتقابل بالشوارع والمنازل والحدائق ، نصبِّح على بعضنا بإخلاص ونُمسِّى بود على بعضنا ، متمنين الليالى السعيدة لكل ناس المينة.

لم يكن أحد فينا يحس إلا بالرضا ، كأطفال صغار نرفض أن يدخل بين حياتنا أذى أو شر ، لم نعرف معنى إصابة أحدنا بمكروه ، كنا كالملائكة التى تقاسمت المدينة وحصلت على الشهادات كأفضل مدينة يعيش بها بشر أنقياء .

(٤)

يوم وفاة والدى الطيب ، كنت متزوجًا من " أمينة" ولم أرزق بعد بأولادى ، حين وافته المنية بالمستشفى بمبنى المصلحة الأهلية ، اتصلت أختى التى كانت تزوره كعادتها مع والدتى كل يوم لتبلغنى بالخبر الحزين .

خرجت مسرعًا من البوابة دون استئذان ، أحاطنى زملائى وجيرانى ، خلال دقائق معدودة كان جثمان الوالد محمولاً بسيارة المستشفى ، رفضت أمى جلوس أحد بجوار جثته ، سار الجميع معنا حتى المدافن البعيدة ، ودون صراخ رقدت جثته فى مثواها الأخير.

تمتم الأصدقاء والجيران بكلمات الرثاء الداعية بالأمل ، تلقت أمى وأخى " عز" وأختى "عزيزة" الأحضان الدافئة من المعزين ، وأخذت نصيبى فى حق والدى من الرثاء .

عدنا إلى منزل العيلة ، فتحنا النوافذ وقررنا النوم مع أمى التى رفضت عيناها الدموع طوال ثلاث ليالٍ ، وفى الليلة الرابعة فارقتنا لتلحق بأبى الطيب دون ضجيج ، ورغم الحزن لكن الأهل خففوا لوعة الفراق ، عدنا بعد أسبوع نمارس حياتنا كأن المتوفيين يعيشان معنا ، كلما تذكرنا وجوههما بكينا بحب .

داوى صديقى " مخلص" جراحى ، قال لى يوم وفاة الوالدة بحضرة إخوتى : " سأمكث معكم شهرًا بشقتكم ، ليحكى أحدكم منذ وعيه بالدنيا حتى موتهما المشاهد التى جمعتكم " ، كان اختبارًا قاسيًا ، لأنى و" عز" و" عزيزة" ، ظللنا نحكى كل يوم حكايات متنوعة عن والدنا وأمنا ، اللذين لم يبدر منهما أى أذى لأحد .

عمل أبى الطيب بائعًا للورود ، سلمته البلدية محلاً بميدان المدينة الرئيسى ، يظل طوال اليوم يروى أُصُص الزهور ، تجلس أمى معه أوقاتًا كثيرة ، يعود إلى المنزل دائمًا بباقات الزهور المبدعة ، يملأ حجرات منازلنا ومدخله بأنواع باهرة من النباتات المتنوعة ، يسمى كل واحد فينا باسم نوع من الزهور ، أطلق على أمى " اللوتس " ، ونادى أختى "بقرنفلة "، بينما كان يطلق علىَّ اسم "الفل" ، وسمى أخى " عز" " البنفسج" .

دوّن صديقى " مخلص" الكثير من الحكايات ، لدرجة أنه قرر أن يعيد صياغتها وينشرها فى عشرة مجلدات ، ليمجد قصة حياة مواطن ظل طوال عمره مع زوجته " روعة" يقدمان للناس من حولهما أبهى روائح الورد المنعشة .

كان الأسى بعيدًا عنا رغم الفراق ، تمكن " مخلص" من إحياء ذكرى المفقودين بسرد حياتهما ، وظل مهتمًا بترديدها كلما قابل جنس مخلوق .

يأخذنى صديقى لشقته أوقاتًا كثيرة لأجالس زوجته " هنية " وابنه الوحيد " هانى" ، يحكون أمامى كل شىء بوضوح ، نستمتع باليوميات الطويلة فى منازلنا ، نتناوب أيامًا كثيرة النوم فى منازلنا ، تحب زوجتى " أمينة" الليالى التى تنام فيها عند صديقى ، تجلس طوال الليل مع زوجته " هنية" تتسامران كأنهما تعيشان بآخر الليالى ، لم يكن يضاهى هذه البهجة التى أراها بعيونها وعيون أبنائى ، إلا الليالى الأخرى التى ينام فيها عندنا جارنا الطبيب "وافى" وزوجته "وفية" ، ورغم أنهما لم ينجبا أولادًا ، لكنهما ظلا يعاملان الجميع كأنهم أبناؤهما.

يعيش أخى " عز" وأختى " عزيزة" دائمًا معى ، سواء أكنا بمنازلهما أم بشقتى ، لم أسمع يومًا شكوى من أحد فيهما أو تذمرًا من زوجتى أو زوجة أخى " هادية".

كأسرة واحدة ملائكية عاشر أهل المدينة بعضهم ، لم يكن أحد يهتم إلا بإطلاق أجمل وأروع ما تمتلئ روحه من عطايا ، العيون المبتسمة دائمًا تجعلك تعيش كأنك تمشى وسط جنة رضوان ، لكن الشىء الغريب أن أحدًا لم يعرف ديانة الآخر أو يسأله عن عقيدته إلا بدافع التعرف على مكنون الجمال الذى يملأ أرواحنا جميعًا .

المساجد والكنائس والمعابد وقاعات المسارح تمتلئ بالمبتهلين فى أوقات مختلفة لم نعرف مواعيدها ، الجميع كان يخرج من هذه الأماكن وكأنه اغتسل فى نهر الحب .

لا يضاهى تلك البهجة إلا ليالى الأعياد ، ونور مياه النهر يشع من قلوب الجميع بأسراره المذهلة التى تلفها مياه النهر من كل جانب .

الشىء الغريب أن صديقتى "غالية " تأتى لمنزلنا وتجالس زوجتى بالساعات ، تتركنا "أمينة " بحجرتى أوقاتًا طويلة نتسامر حول معنى الحب ، ورغم أن "غالية " تهتم بكتابة الأشعار والقصص ، لكنها انبهرت بحياة البشر فى مدينتنا ، وظلت غريبة عنا ؛ لأنها ولدت وعاشت

بمدينة أخرى وزارت الجزيرة التى نراها من على شط النهر مراتٍ كثيرة ، أضحت شغوفة بأسئلة غريبة علينا مثل معني إحساسنا بالبهجة اوالحزن، وأحوال غرائزنا الإنسانية ، وتاريخ الشر فى المدينة ، نضحك عن آخرنا باندهاش ، وهى تبلغنا بأن هذه الحياة لا يمكن أن تستمر كما هى بالمستقبل .

رغم أن الجزيرة التى نراها على شاطئ النهر تمتلئ بالزراعات والأشجار، لكن المعدية التى تصلنا بها كانت تمتلئ ببشر مختلفين عنا ، حين نراهم يزورون مدينتنا كنا نعرفهم من وجوههم الصامدة ، تمتلئ عيونهم بمعانٍ أخرى لم نحس بها فى حياتنا ، ظهروا كأغراب مهمها حاولوا تقليدنا ؛ لأن المدينة فرضت ملامحها علينا وكأنه مكتوب على وجوهنا جميعًا " أبناء مدينة ".

(٥)

رغم غرابة "غالية " لكنها أصبحت شقيقة روحى ، تقابلنى بإحدى الحدائق ، تناقش معى النتائج التى توصلت إليها ، تحاول تصحيح إجاباتى عن أسئلتها غير المفهومة لسكان مدينتنا .

تزورنى كثيرًا بشقتى وعملى ، صادقت أولادى وزوجتى ، أصبحت أخت لنا ، لكن علاقتى بها كان داخلها شىء غامض لم يحسه أحد إلا أنا وهى .

تقول دائمًا كإنذار : " المدينة مهددة ، الهمج فى المدن المحيطة سوف يهجمون عليكم ، يجب أن تحترزوا أو تتهيأوا لهذا الغزو" ، كنا نضحك عن آخرنا ؛ الجيران ، والأهل ، وزملاء المصنع ، وموظفى البلدية ؛ لأننا متأكدون بأن حياتنا لا يمكن أن يهدمها أى مخلوق ، فنحن لا نبغى إلا تقديم الحب والخير ، فكيف يمكن الاقتناص من قلوبنا الصافية؟

إذا اعتدى أحد علينا فسوف نشفى جوارحه ، ولن يجد إلا مخلوط العشق فى دمائنا ، سوف تغيره عيوننا الطيبة ، ليتحول فى النهاية كواحد منا ، لكن "غالية" استعصت علينا جميعًا ، لم نتمكن من إسكات صراخها وتهديدها بضرورة تأهيل أنفسنا للمستقبل الذى سيتحول إلى لعنة ويوم أسود فى تاريخنا .

أيام وليالٍ كثيرة تأخذنى ونتسامر بحديقة النهر ، ننام هناك لساعات طويلة ، ثم تعود معى لمنزلى وتنام حتى الصباح ، تنزل فى صحبتى وسط ابتهاج أسرتى وجيرانى ، أركب باص العمل ، وهى تتسكع فى شوارع المدينة ، تبحث عن إجابات منطقية ، لأسئلة يستحيل أن نعرف مضمونها .

أحس بأن رائحتها بها شىء مختلف ، تمكن عطرها من قلبى ذات ليلة تركت فيها خيالى لسماع جنونها وأشعارها ، أحسست بقشعريرة تدفئنى ، منذ تلك اللحظة بدأت أشعر بالخوف ، بدأت أنتقل إلى عالمها البعيد غير عابئ بالسعادة التى تملأ حياتى ، تحس " غالية" بقبضة روحى فتخفف عنى ، تحتضننى وتبكى لإحساسها بالأسى الذى بدأ يتسرب لقلبى .

تأخذنى فى أيام كثيرة للبارات التى بدأت تمتلئ بالرواد ، نشرب حتى الثمالة ، تحيطنى بشقتها البعيدة ، تطهِّر روحى من الحزن الذى لم أفهم سببه أو معناه ، تعاشرنى بكامل ملابسها كأنها حورية عارية وسط مياه النهر ، خلبت عقلى بأشعارها الغامضة .

فى الأيام الأخيرة بدأت أعى تخوفاتها ، حاولت أن أنقلها إلى المحيطين بى الذين كانوا يندهشون ، ويتندرون علىَّ كأننى أبله .

تسرب التمرد إلى روحى رغم التزامى بمواعيد العمل ، وطقس يوم الجمعة المقدس الذي أصحو فيه باكرًا ، رغم أننى بأجازتى الأسبوعية ، أنزل إلى الشارع تاركًا زوجتى وأبنائى نائمين ، أشترى الجرائد وأتصفحها حتى العاشرة ، ثم أذهب للمطعم أشترى الفول والطعمية والبيض ، وأعود مرة أخرى لشقتى ، أجهز الإفطار بهدوء " لأمينة " و"أمجد" و"ريم" ليقوموا من نومهم مبتهجين بأشهى وجبة يتناولونها خلال الأسبوع .

وسط النهار آخذهم ونذهب لمنزل العائلة ، لنقابل أخى " عز" وزوجته " هادية" وأختى " عزيزة" وزوجها " محروس" الصامت وأبناءهم ، نجلس جميعًا بصالة الشقة الواسعة ، نتذكر والدنا الطيب وأمنا " روعة" ، ننام مع أولادنا على أسرتنا التى تربينا عليها ، نحكى القصص الطويلة التى سمعها وسجلها صديقى " مخلص" يومًا ما فى مجلداته العشرة .

بعدها نخرج لحدائق المدينة ، نقابل جيراننا وزملاء العمل وأسرهم ، ندخل المسرح أو السينما أو نذهب لدور العبادة ، نتأمل رحلة الأنبياء الذين نزلوا الأرض لينشروا الحب.

بدأت حياتى تتبدل ، رغم قدسية يوم الجمعة، وعلاقتى الغريبة "بغالية" وأشعارها الحية، ورسائلها المتبادلة مع عوالم ومدن أخرى خلاف مدينتنا ، بدأ الأسى يتسرب رويدًا رويدًا لروحى ، لكن " غالية" الواعية كانت دائمًا تخفف الأوجاع والآلام ، وتعيدنى " فؤاد " الإنسان الذى عرفته المدينة منذ مولده كرمز لزهرة الفل .

"عادى"

(١)

فى صباح يوم أغبر انتشر النمل الأبيض والفئران والعرس والثعابين فى الزوايا ، هبت الرياح العاتية وضربت أعمدة الكهرباء وأكشاك الورد وصنابير المياه ومحطة الصرف وأسفلت الشوارع ونجيلة الحدائق لتحول كل ذلك إلى أنقاض ، اقتلعت العاصفة الأشجار من جذورها ، أصبحت السماء مصدرًا لتساقط نقاط المطر القذر الذى ملأ الحوارى ، وتحول إلى أكوام من الوسخ فوق أسطح المنازل ومداخل المدينة ، ميَّز هذه الأكوام تراكم الذباب الميت الأسود المتعفن برائحته المميتة .

شاهدنا هجوم الأغراب على المدينة ، رغم النور الذى أطلقته الشمس الغائبة ، افترشوا الشوارع والميادين والزوايا ، دقوا فيها الخيام ، ورصوا أسرة وأطعمة وبقايا ملابس وأجهزة قديمة وسط الميادين الواسعة .

انتشرت أقفاص الدجاج والحمام أمام دور العبادة والمسارح ، ركب أطفال وصبايا ونساء عربات قديمة تجرها حمير وبغال بعيونها الناعسة ، داروا بالحوارى يطلقون نداءهم الغريب : " كل حاجة قديمة للبيع" .

ساعات قليلة حتى امتلأت المدينة عن بكرة أبيها ببشر وحيوانات وأطعمة وأجهزة وسيارات قديمة بشكل فاق خيال الجميع .

صباح هذا اليوم لم يأتِ الباص الذى يقلنى إلى عملى فى موعده ، انتظرت ساعة أمام المنزل حتى جاء السائق، استقبلنى بسب الدين على غير عادته ، وصرخ لأركب : " اتفضل بسرعة شوية يا سيدى" .

رفع صوت مسجله ليردد أغنية غريبة تشتعل بالطبل والزمر والهتافات المرعبة ، امتلأ الباص بالبشر الأغراب والسبايا ، لم أتعرف على معظمهم ، فسألته دون قصد سيئ : " هما مين دول يا أسطى ؟ " ضحك عن آخره وقال : " ركاب يا سيدى هينزلوا فى المصنع اللى قبلكم ".

واستطرد بقرف : " الباص بقى شرك يا سيدى بين أصحاب المصانع وهيئة النقل الجديدة التى اشترت كل باصات المدينة ".

زجرنى شخص بجوارى ليتقدم أمامى قائلاً : " بعد إذنك شوية يا فندي" ، نظرت إلى وجهه ، كان غريبًا ، لم أشاهده قبل ذلك فى مدينتنا .

نزلت أمام المصنع الذى امتلأ مدخله بالمقطورات وأكوام القمامة ، لم أجد أحدًا لأسأله عما يجرى ، صعدت إلى حجرتى بالدور الثانى فوجدتها مغلقة على غير العادة ، فجأة سمعت هتافات العمال بقيادة زعيمهم السيد " نضال" رئيس النقابة ، يهتفون ضد السيد " شريف" صاحب المصنع ، صرخوا قائلين : " نحتاج أجورنا يا لص" .

لأول مرة أشاهد ضباطًا يرتدون ملابس عسكرية يحيطون بالعمال ويحمون السيد " شريف" الذى استشهد بى صارخًا : " فؤاد ، يا فؤاد كلم الباشا " ، سألنى الضابط مجاورًا لموظف يدون كل شيء : " هل أكل السيد شريف عرق العمال ؟ " فأجبت بالنفى ، قال : " تعال معنا لتشهد ضد العمال الذين يرغبون فى تخريب المصنع " ، رفضت طلبه ، قائلاً إنهم أفضل عمال ينتجون أجود الملابس ، فكيف سأشهد ضدهم ؟ زجرنى السيد " شريف " قائلاً : " أنت معى ولا معهم يا فؤاد؟ " لم أرد ، فقال بغل : " خصم عشرة أيام من راتبك يا جبان".

خرجت لبوابة المصنع لأفهم ما يجرى ، نادى علىَّ السيد " نضال" قائلاً : " انضم إلينا ليصرف اللص حوافزنا وأجورنا المنهوبة "، قلت بهدوء فى وجهه : " لماذا تلك التجمعات وهذا الضجيج ؟ يكفيكم أن تطالبوا السيد شريف دون التذمر والاحتجاج بهذه الطريقة" ، سبنى وقال : " لم ننتظر من ديل الكلب إلا ترديد أكاذيب اللصوص " .

شدنى زميلى وصديقى " حسن" الذى يجلس معى بحجرة المكتب قائلاً : " تعال بعيدًا عنهم يا فؤاد فأنت رمز للسيد شريف لأنك من الإدارة " ، رفضت طلبه وقررت العودة إلى منزلى

، فقال صاحب المصنع الذى كان يسمعنا بصوت عالٍ : " لا تعد مرة أخرى إلى مصنعى ، أنت مفصول يا فؤاد الكلب! "

(٢)

حين اتصلت بى زوجتى قائلة إنها بالمستشفى ومعها الأولاد ، أخذتُ تاكسى لونه غريب واتجهت وسط الهرج الذى يملأ الشوارع إلى المستشفى الذى شاهد وفاة أبى ، اكتظت مداخل هيئة المصلحة الأهلية عن آخرها بالمشلولين والمحنيين والمشوهين.

داست أقدامى جثثًا تتعذب وتتألم ملقاة على بعضها أمام المبنى ، وتطالب بحجزها لترتاح من الوجع ، سمعت أنينهم ونزاعهم وهم "يتلوون " بسبب ألم الكلى والكبد والأمعاء والقلب والدم والرأس والقدم واليدين .

نساء عجائز وشابات وشباب وأطفال يهجمون على بوابة المستشفى ليدخلوا دون رغبة الحراس ، عجزت عن المرور من وسطهم ، حاولت أن أدخل من باب خدمة المواطنين الخلفى ، لكن مجرد الحلم بدخول المبنى أصبح عبثًا ، عدد كبير من البشر الغرباء يقفون خلف المبنى بسكاكين ويطالبون كل من يرغب فى الدخول بدفع عشرة جنيهات للمرور.

سألت أحدهم عن هويته فضحك وقال : " نحن أصحاب المدينة " ، لم تكن هناك طريقة أخرى للدخول سوى دفع المعلوم ، شاهدت داخل المبنى البشر المشقوقة أنوفهم والمفتولة عضلاتهم ، والمأخوذة قلوبهن ، انتشروا على السلالم كالسبايا ، تحيطهم الصبايا اللائى يدخن بشراهة .

أخيرًا اجتزت أسوار المصحة مندهشًا لما يجرى ، زجرتنى امرأة عرت صدرها تمامًا قائلة : " أى خدمة يا أخ؟" قلت لها: " أرغب فى رؤية زوجتى وأولادى فى حجرة العلاج الطبيعى " ، شدتنى من يدى وطلبت المعلوم ، واندهشت لجهلى قائلة : " هات عشرة جنيه يا روح أمك ، وإلا اخلي إخواتى يأكلو لحمك ويهرسوا عظامك ".

دخلت حجرة زوجتى " أمينة" المرمية على سرير قذر ، الأطباء المحيطون بها يرتدون ملابسهم الداخلية ويدلكون باهتمام مبالغ قدميها المشلولتين ، تجمع أطباء آخرون عرايا وممرضات حُلقت رؤوسهن تمامًا حول سرير ابنتى " ريم" لاستخراج السم الذى تسرب للسانها وأصابها بالخرس ، بينما كان " أمجد " ابنى يصرخ مصروعًا على السرير الثالث ولا أحد يهتم لآلامه.

سألتنى الممرضة التى تمسك مشرطًا كبيرًا وطويلاً : " أنت والدهم؟" قلت : " نعم " ، قالت: " يجب أن تغتالك السلطات " .

اقتربت من " أمينة" ، وسألتها عما جرى ، وكيف حدث ذلك؟ سألتنى ببلاهة : " أتتذكرنى الآن يا فؤاد ، ألست أنا زوجتك أم أولادك التى كنت ألمع لك الحذاء ؟" فقلت لها :" أنت ملاكى" ، قالت " يا غادر ، كيف تجرؤ على مرافقة امرأة أخرى ، وتنام معها ببيتى يا واطى ؟"

زاد الألم بين فكيها وهى تسبنى ، فسال الدم من فمها وأنفها على ملابسها وملاية السرير ، صرخ الدكتور العارى قائلاً : " ألا تحس يا بارد ؟! يمكن أن تصيبها بالخرس إذا شاهدت وجهك مرة ثانية " ، سألت عن صحة أولادى ، فداس على زر بجواره ، ودخل مشقوقو الأنوف ومقطوعو الأذن صارخين بوجهى ، قائلين : " نحن نتكفل بكل شىء ، ارحل فى هدوء وإلا شربنا دمك يا ديل الكلب ، اذهب بجريمتك قبل أن نخرم عينك ".

حاولت مد أطراف أصابعى لأتحسس قلب " أمجد" أو " ريم" لأخفف آلامهما ، لكن الممرضة أشهرت بوجهى المشرط ودفعتنى لخارج الحجرة صارخة : " ارحل يا ملعون دون رجعة ".

خرجت بأعجوبة من المبنى ، وجدت نفسى أجلس وسط غرباء داخل خيمة أشبه بجهنم ، أتناول طعامهم وشرابهم الأسود وانام وسطهم بلا شعور بالغربة ، وفي الحقيقة أننى أصبحت شخصًا آخر بعد الشراب ، وضاع الفرق بين سكان المدينة وهؤلاء الأوباش الذين ملأوا الحوارى والزوايا والشوارع ، وتواطأوا مع رجال الدفاع المدنى الذين ادعوا يومًا ما حراسة المدينة .

(٣)

ذهبت احدي الصباحات الي شقتي لاري ابنائي ففوجئت بوضع زوجتى قفلاً جديدًا على الباب ، حينما حاولت كسره ، خرج " وافى" جارى الطيب قائلاً : " أرجوك يا فؤاد لا تعد هنا مرة أخرى " ، قلت : " ماذا حدث ؟" رد بأسى : " شربنا منك ما يكفى ، أرجوك ارحل بعيدًا " ، قلت : "لماذا أصاب اولادي المرض؟ " رد بجفاء :" أرجوك لم تعد هناك فائدة ، ارحل وكفى" .

أغلق الباب فى وجهى دون أن يستأذننى أو يجيب على أسئلتى الحائرة ، نزلت متوجهًا لبيت صديقى " مخلص" ، سعدت برؤيته واقفًا مع زوجته " هنية" وابنه " هانى" بالبلكونة ، ناديت عليه ، بصق فى وجهى وقال بصوت عالٍ : " يا ديل الكلب ، لا تُرنا وجهك مرة أخرى ".

نظر الناس من حولى فى الشارع بغرابة لملابسى ، أحسست بأنهم يرغبون فى مشاهدة الذيل الذى أشار إليه صديقى ، التفت حولهم باحثًا عن الكلب ولم أعثر عليه .

قلت بصوت عالٍ : " يا مخلص انزل عايزك "، استغرب برودى ونظر بخوف فى عيونى ، أشارت زوجته علىَّ كى انتظر ، واختفى " مخلص" من البلكونة ، وقلت لنفسى : " سينزل ويحكى ويبرر بهدوء كيف احتل الأغراب مدينتنا " ، عندما رفعت رقبتى مرة أخرى لأنادى عليه ، فوجئت بجردل الوسخ يندلق على رأسى ، شاهدنى الناس مبتلاً عن آخرى ولم يندهشوا ، جريت مبتعدًا عنهم ، لاح فى ذهنى النهر كي أغتسل ، جريت مسرعًا لشارع الكورنيش ، دخلت الحديقة التى اقتلعوا حشائشها وأشجارها ، ومازالت بقاياها تدل على أنها كانت حديقة يومًا ما .

قفزت بالمياه ، وغطست برأسى ، وشاهدت الجزيرة على الجانب الآخر بأشجارها الوارفة وعيون جواميسها الناعسة ، امتلأت المياه من حولى بروائح نتنة ، سرعان ما تعودت الرائحة ، خرجت وخلعت ملابسى ونشرتها على الشط ، كانت حرارة الشمس الحارقة والرياح العاتية كفيلتين بتجفيف ملابسى فى دقائق، ارتديتها مسرعًا مقررًا الذهاب لأخى " عز" وأختى " عزيزة" .

للصدفة الطيبة وجدتهما بشقة العيلة ، استقبلانى بعيون شريرة ، سلمت عليهما ، لم يردا السلام ، وقالا بتشفٍ وغل بصوت واحد :" نريد بيع البيت لصاحب السوق التجاري " ، قلت : " ماذا جرى بالمدينة ؟ وكيف أصيب أبنائى وزوجتى بالأمراض المعجزة ؟" لم يردا ، واستكملت

"عزيزة" : " ابنى يحتاج لقرشين ليفتح مشروعًا ، وأخوك عز كبر ، ويحتاج لفتح مقهى أو مخبز ليأكل هو وأولاده ، ألا تعرف أن ابنته تحتاج الآلاف الجنيهات لشراء فرش الزفاف ؟"

سألتهما بدهشة عن ناس الأسواق والخيام والحمير والرجال معقوفى الأنوف والنساء مشقوقات الشفاه "، استغربا كلامى ، وقالا : " ستبيع معنا أم لا ؟ " وقبل أن أرد ، صرخ " عز " فى وجهى قائلاً: " أخذت عربونًا من المشترين وغدًا سأوقع لهم ، يجب أن تبيع وإلا ضاع حقك " ، انتابنى الصمت ، فقال : " هتعمل مجنون يا واد ، اخرج بره يا ديل الكلب " .

سبتنى أختى وطردنى أخى وأغلقا باب الشقة فى وجهى ، نزلت درجات السلم حائر مما يجرى ، الشيء العجيب أن التساؤل عن هجوم الأغراب ، وانتشار النمل والثعابين والكلاب الضالة ، لم يعد مهمًا لأحد ؛ حتي ما حدث بحياتى ولأسرتى وأصدقائى اصبح شئ عادي ، وتحولت مدينتا إلى وكر لوجوه مشرورة مرت خلسة من الشقوق ، وحرمتنا كل ما نملك.

(٤)

شيء واحد دفعني للأمام واللحاق بمن ذهبوا بعيدًا ، لاح النيل أمامى كمخرج وحيد من ضجيج المحلات الكبيرة والصغيرة التى ملأت المدينة ، شيء أحسه ولا أفهمه ، ينتشر بين ثنايا جسدى ، ويحفزنى لاستكمال الطريق .

سرت وحيدًا بالشوارع المملوءة بالحفر والمطبات ، أبحث عن أصدقائى وزملائى وأسرتى وإخوتى ، تقابلنى المقاهى المملوءة بالبشر الأغراب الذين شُقَّت رؤوسهم وقطعت آذانهم ، أنحنى بالشارع باحثًا عن حدائق الورد التى كانت تغطى الشوارع ، فأجد الأسواق المنتشرة والمملوءة ببقايا طعام وأجهزة وخضراوات وفاكهة يتناولها ويشتريها ويبيعها ذوو القلوب المشقوقة .

ظهرت مركبات غريبة للنقل وسط الشوارع والحوارى ، قادها صبية مجانين ، يشمون البودرة ويتجرعون بنهم زجاجات السبرتو مرة واحدة ، ثم يلقونها وسط الشارع ، غير عابئين بروائحهم النتنة .

انتشر المتسولون السمر والبيض والشيوخ والشبات والأطفال ، يستوقفون المارة عنوة ويطالبونهم بثمن رغيف خبز ، ضجت مداخل المنازل بألوان وأنواع مختلفة من البضائع ، ظهرت أكوام القمامة وانتشرت ، ملأت رائحتها المميتة كل أرجاء المدينة ، لكن الشيء الجيد أن بعض الحيوانات الأليفة والقطط كانت تنظر فى عيون المارة باندهاش ، كأنها تسألهم عن هويتهم .

الشوارع والحوارى الصاخبة تدفعنى نحو المجهول ، فجأة أجد نفسى بمحطة السكة الحديد ، قطارات غريبة وصلت إلى المدينة تمتلئ بالمواشى والحيوانات المتوحشة داخل أقفاصها ، سألت ببلاهة أحد المارة عن أسباب وجود هذه الحيوانات ، رد بتعجب : " إنها ليلة المولد يا مخبول" ، قال آخر : " سوف يقيمون السيرك على أرض الحديقة التى تتوسط قلب المدينة ".

جرح قلبى مرات كثيرة فى الأيام الأخيرة ، لكن نظرتى الأسد الجريح ، والنمر المتوحش ، وأنا أتخيلهما بقلب المدينة تدعواننى للأسى ، زجرنى شخص غريب بعد أن خطف أحد الصبية حقيبة إحدى العجائز قائلاً : " اهرب ، المحطة مملوءة باللصوص ".

عاودت أدراجى لحديقة النهر ، منظر المركب الذى يقل آلاف الأسر الغريبة يذهلنى ، وقفت بمواجهة الركاب محاولاً التعرف على جنسهم ، نساء شبه عرايا وفتيان يمسكون السواطير والعصى والطبنجات ويلقونها على الشط ، قلت بصوت عالٍ لنفسى : " من هؤلاء ؟ " رد أحد المارة بجوارى : " إنهم الغجر ، ينزلون بحمولتهم الثقيلة عندنا " ، واجهته قائلاً : " هل يمكثون كثيرًا عندنا ؟ " ضحك عن آخره مستطردًا فى الإجابة : " إنهم الأنبياء الجدد الذين باعوا كل شىء ليعيشوا وسطنا " .

تركته مواصلاً طريقى ، لاحت حبيبتى فى ذهنى ، فهى الوحيدة التى تملك السر ، ناديت بصوت عالٍ أذهل رجال الغجر ونساءه : " أنت فين يا غالية؟ " رغم دموعى التى خرجت دون إرادتى ، فإن الجميع كان يضحك ، كأنهم شاهدوا مخبول بقرون ينادى وسط الأسوياء .

(٥)

كنت على وشك الجنون الفعلى ، سألت نفسى باندهاش عن اسمى ، أخرجت هويتى ونظرت للاسم : " فؤاد ضرغام " من مواليد هذه المدينة ، أأعود وأدخلها مرة أخرى كى أبحث عن "غالية" .

انتابتنى إرادة قوية ومشاعر فياضة للفهم ، امتلأت بإحساس مناهض لما جرى لخلانى ، عدت داخلاً قلب الشوارع بتحدٍ ملئني فجأة ، تستقبلنى الوجوه المملوءة بالانهيار ، تسحبت هاربًا محاولاً البحث عن صديقتى الباقية ، آملاً فى مشاهدة من يعرفوننى ليعيدونى إلى عقلى .

كلما دخلت فى الضجيج ، زادت التساؤلات ، كنت واثقًا من الوصول إلى الحقيقة ، وإعادة الجميع إلى رشدهم ، تيقنت بأن هناك شيئًا غامضًا حدث وأدى إلى سيطرة الأغراب على الشوارع والمنازل ، رغم أن البيوت طالها الصدأ وتراكم على شبابيكها المفتوحة التراب ، فإن أبواب المنازل ظلت تنزف بالحزن على فقد الجميع تاريخهم.

هناك شىء ما سيجعلنى أفهم ما جرى ، السر تمتلكه "غالية" ، لكنها اختفت فجأة ، ولم تعد تتصل بى أو حتى ترد على هاتفى .

بحثت بين الفراغات التى تنتشر بالسماء والأرض ، لا يوجد مكان خالٍ ، أتحسس الزحام الرهيب حولى ، لم يترك الأغراب إلا موقع القدم ، إذا رفعته ، وضع آخر قدمه مكانك ، لا أمل إلا أن تتشبث بمكانك ، وإلا أخذه غيرك ، انطلقت صارخًا : " لن تمنعوا النور عن عينى " ، ضحك رواد المقهى وهم ينظرون بدهشة لملابسى ، انبرى أحدهم قائلاً : " كل شىء قابل للحدوث " ، رددت عليه وأنا أسير متسارعًا :" لن تتمكنوا من نحري " .

انزلقت قدمى فى حفرة كبيرة فوقعت متكومًا على جسدى المتهالك ، نظر المارة إلىَّ بغضب ، قالت إحدى النساء التى تبيع الحلقان : " مش تفتح يا أعمى ، " ضحكت النسوة اللائى تتوسطهن ، وقلن بشكل جماعى : " مين مفتح دلوقت يا مسعورة؟ " اسمها " مسعورة" ، ووجهها مملوء بالشر ، لن أرد عليها ، قمت متكئًا على يدى ، وابتعدت عنها غير عابئ بسبابها .

سألت نفسى فجأة مرة أخرى باندهاش : " من هو فؤاد ضرغام " ؟ كنت أرغب أن يجيبنى أحد ، ليقول إنه طوق المدينة البعيد الذى ظل يمارس حياته مندفعًا برغبة مذهلة فى الربيع ، العاشق للعيون والزهور والفراشات ، لكنه أبدًا لم يتخيل أن يطوله بغض الجميع واحتلال الأغراب لمدينته التى حازت فى الماضى ميدلية فضل المدن.

لكن ألا يجوز أننى جننت فعلاً ، وأن هذه المدينة التى عشت فيها من صنع خيالى! اعتقدت فجأة أن هذا أقرب للحقيقة ؛ لأنه لا يمكن خلال أيام معدودة أن تتغير المدينة وتمتلئ بهذه بالوجوه الشريرة كأنهم أصحاب تاريخ وحاضر وحقوق .

أيجوز فعلاً أننى لم يكن لى أصدقاء ودودون أو جيران طيبون؟ أيمكن هذا؟ حتى زوجتى وأبنائى ، أيعقل فعلاً أنهم أصيبوا فجأة بكل تلك الأمراض ، بعد أن كانوا ملائكة؟!

حتى أخى الكبير " عز " وأختى " عزيزة" تغيرا فجأة وطردانى ، ، أيجوز فعلاً أننى تخيلت جلوسى وسط أبنائهما وزوجيهما أيام الجمع المقدسة ، منتشيًا بالبهجة ، لا أعتقد أن كل هذا يمكن أن يحدث فى عدة أيام ، أعتقد أننى أصبحت مجنونًا ، لأنه لا يمكن لعاقل أن يتابع كل ما جرى ويفهمه ويصدق أحد بعد ذلك أن عقله سليم .

ما العمل إذن؟ من يعيدنى إلى صوابى ويرشدنى للصواب؟ لم يعد إلا حبيبتى ورفيقة عمرى الوحيدة التى كانت تحذرنى ، أعتقد أن مقابلتها ستعيدنى إلى عقلي ، جاءنى تساؤل غريب فى هذه اللحظة ، رغم أننى لم أفهم معناه : " لماذا لا أبحث عنها فى الجزيرة " ، كانت الدهشة تعلو وجهى وأنا أفكر فى طريقة للخروج أو الهروب ، فكرة الرحيل للجزيرة لم تكن حلاً فقط ولكنها قدمت لى مكانًا آخر للفهم.

أحسست بارتياح كبير بعد التفكير بهذه الطريقة ، فقررت العودة إلى النهر ، لأعيد ترتيب أفكارى ، وأتعرف على ما يمكن فعله فى مواجهة هذه المدينة الخادعة .

اقتربت من الشاطئ وجلست فى مواجهة مراكب الصيد والمعدية التى تمتلئ بالآلات والمكن والبشر العاجزين عن الضحك ، زحفت الصراصير والنمل على أقدامى التى تتمدد بجانب الرصيف ، انتشر الذباب على عينى وأنفى ، تحركت يدى بعفوية لتقتل العشرات منهم ، وأزاحت يدى الأخرى الحشرات المقتولة بعيدًا عن قدمى .

قلت لنفسى : " أيمكن التخلص من كل هذه الحقائق والأوهام بالقتل ؟ كيف وانتنى هذه الفكرة الغريبة ؟ أيمكن أن ألقى بنفسى فى مياه النهر دون أن يحس أحد ، وتنتهى كل هذه الأسئلة ؟ " نظرت للسماء واستكملت بصوت عالٍ: " يمكن ترك رسالة بمنزلى ، أو بمنزل أحد أصدقائى أو فى بيت أخى أو أختى ، أشرح لهم ما جرى وعجزى عن فهمه ، قرارى الأخير بالانتحار هو الحل الوحيد الباقى " ، برز أمامى الموت كشبح ، وامتلك عقلى كمجنون فعلى .

"رحيل"

(١)

لا أدرى ما الذى حدث ليبعد عن ذهنى فكرة الانتحار ، أعتقد أن أملى فى رؤية " غالية" مرة أخيرة قبل تنفيذ خطتى ، فتح نوافذ أخرى بذاكرتي ودفعنى إلى الانتظار.

قلت لنفسى : " المدينة ليست كبيرة وأعرفها خرم خرم ، سأبحث عنها " ، امتلأت بالهمة أجوب الشوارع وأسأل الباعة الأغراب عن امرأة جميلة ، يحيط شعرها الكستنائى الناعم وجهها الملائكى ، أبدعت فى وصفها لكل عابر سبيل ، وقف الجميع فى البداية غير مهتمين بأسئلتى ، ومع تكرار وصفى للمرأة الوحيدة التى عرفتنى ، أظهروا الاهتمام ، بادلونى بود غريب وسألونى باندهاش: " هل توجد امرأة بهذه الأوصاف ؟ " رغم أننى لم أقل إلا الحقيقة ، فخدودها الناضرة ، وعيناها الصافيتان ، وفمها الضاحك ، وعودها المفرود ، وصدرها المشدود ، وجبينها الشامخ ، وخطواتها الواثقة ، لم تكن إلا وصفًا حقيقيًا لملامح امرأة كانت تمتلك السر فجأة اختفت.

أثارتنى أسئلة بعض الفضوليين التى وقفت أمامها صامتًا مثل : " ماذا تمثل لك ؟ أهى قرينتك؟ زوجتك؟ عشيقتك؟ لماذا تبحث عنها ؟ أسرقت منك شيئًا ؟ أخانتك وهربت مع عشيقها؟

أسئلة كثير لم أفهمها ، ولم أتمكن من الإجابة عليها ، ومع ذلك فى نهاية اليوم ، تساءلت بينى وبين نفسى : " من هي غالية ، ولماذا هى بالذات التى تعرف الحقيقة ؟ "

أكانت " غالية" هى الأخرى وهمًا ، أكانت أشعارها وتخوفاتها من الطوفان أكاذيب ؟ لا أعرف لماذا أتذكر نبرة صوتها الملتاعة يوم أن قابلتنى على الشاطئ ونحن نتأمل الجزيرة ، قائلة بأسى : " من فينا يملك الحقيقة؟ "

غالية الاسم والمعنى وكل الفؤاد الذى يملؤنى بالأمل ، كيف يمكن أن تكون وهمًا ؟ كيف لأشعارها التى حفظتها أن تصبح مجرد خيال ؟ كيف لأحضانها وأطراف أصابع يديها التى أحاطتنى سنوات طويلة أن تصبح مجرد ذكرى يطويها النسيان؟!

رد الرجل العجوز الذى يختلف عن أقرانه الغرباء برجاء قائلاً : " انس يا ولدى فغالية دائمًا مصيرها الضياع، رغم أنها جوهرتك الغالية ، لكن الصدأ يطولها لإهمالك ، ابحث عنها بعيدًا ، فلا احد هنا يعرف مقصودك !"

كاد الجنون يعيدنى مرة أخرى إلى أوهامى ، حتى " غالية" يمكن أن تصبح وهمًا ؟ ألا يكفى أن المدينة اغتالها الأغراب ، وهجرنى الأهل والأصدقاء ؟!

حتى " غالية" الحلم الباقى ، قررتِ الرحيل دون وداعى ، سأرى نور عيونها مرة ثانية ، وأفهم أحداث مدينتى ، وأعيدهم جميعًا لرشدهم ، ولكن هل يمكن لامرأة كانت كل حياتك ، أن تختفى فجأة ، وتأبى ألا تعود أبدًا ؟!

(٢)

واتتنى فكرة أن أكتب لكل شخص قابلته فى مدينتى الغارقة رسالة ، أشرح له بصدق مشاعرى وذكرياتى حول الماضى المشترك الذى جمعنا ، ستعيد الرسائل رغم الضجيج تذكرى لمعرفة كل شىء.

لا مكان فى البلدة الآن إلا للحاضر ، يعيش الجميع على أمل أن يستيقظوا أحياء فى اليوم المقبل ، أحياء فقط ، لا حلم لهم إلا استمرار حياتهم ، لا يهم شىء آخر ، لا يهم أننا لا نستمع الأن أو نفهم أو نحيا الحياة كما يجب ان تعاش، كل ذلك أصبح من مخلفات المدينة ، لم يعد يتذكره أحد ، ماذا ستفيد الرسائل ؟ قلت لنفسى أأكتب رسالة وأقول فيها : " اسمى فؤاد ضرغام، عاش بالمدينة أعوامًا طويلة ، وفجأة هاجم الذباب والصراصير والنمل والأغراب الشوارع والبيوت وأحالوها إلى كومة تراب مملوءة قذارة " .

ماذا ستفيد الرسالة ؟ قلت لنفسى معترضًا: " لإعلان هويتى ، وموقفى وأحلامى وآمالى " ، ولكن لمن سأرسلها إذا كنت سأوقعها باسمى ، أيمكن توقيعها باسم غريب ، لأصبح مثل مدينتى ؟ المدينة تهرب بعيدًا وأنا أقترب من الإجابات المستحيلة .

قال عربجى يسير ببطء وسط الشارع المكتظ : " رأيت غالية خارج البلدة " ، جريت وراءه ، استوقفت البغل ، وسألته : " أتعرفها ؟" رد بخوف : " الجميع يعرفها ، إنها حبيبتك " ، قلت : " وأين أجدها الآن؟ " رد بانكسار : " شاهدتها تسير مع أبناء المدينة الأغراب منذ ساعات بجوار محطة القطار "، سألته : " أرحلت عن المدينة ؟ " أجاب بحزن : " لا أعرف؟" وتركنى حائرًا ، بعد أن ضرب بغله بالكرباج على كفلها .

الدم النازف على ملابسى يربكنى ، ولا يُدْهَش أحد من الراحلين أو القادمين ، الجميع مشغول بحمولته الثقيلة ، لامكان لأقدامك إلا بدهس أقدام الآخرين ، تفرست العيون البنية والسوداء والعسلية ، انها رائعة ، لكنها حزينة .

كدت أمزق ملابسى المتسخة والمملوءة بدمائى لأعرفَ ما يدور بخلدهم ، حاولت التميز بين أبناء المدينة والأغراب ، الجميع اشترك فى الأسى ، الجميع يتجاهل أسئلتى ، ويرد بإشارات غريبة على قلبى ، ويتساءلون بعد إلحاحى : " من هى غالية؟ "

جريت متجهًا إلى محطة القطار ، استوقفتُ توك توك وناديت بصوت عالٍ: " محطة القطر يا استاذ ؟ " ركبت مسرعًا وطار الصبى الذى يقوده باتجاه المحطة ، وهناك أنزلنى وطلب خمسة جنيهات ثمن التوصيلة ، قلت :" لا أملك شيئًا " ، حطَّم وجهى ، وعاد مرة أخرى إلى مركبته ، وهو يلعن اليوم الأسود الذى وافق فيه على طلبى .

(٣)

رغم الدم النازف من وجهى ، دخلت مسرعًا رصيف المحطة ، باحثًا عن مشاعري ، كان القطار الأخير يتحرك ببطء ليغادر الرصيف ، دخلت بعيون الجميع رغم الزحام بثانية واحدة ، باحثًا عن أثرها ، وقبل أن ينطلق القطار مبتعدًا ، ناديت بصوت عالٍ: "يا غالية ، يا غالية " .

نظرت امرأة من شباك القطار بحسرة ، وألقت بظرفًا مملوءًا بالورق ، كان وجه "غالية " المشرق ، رغم أنها حلقت شعرها وأصبح رأسها أملس ناعمًا ، لكنها كانت جميلة ، التقطت الخطاب سريعًا ، وظلت عينى تبحلق فى عيونها حتى اختفى القطار ، لم يثر المشهد رغم غرابته أيًّا من الراحلين أو الواصلين إلى مدينتنا .

شخص واحد فقط يحمل سلاحًا بجنبه ، اقترب منى قائلاً " : ماذا ألقت لك المومس؟" لم أرد ، فأخذ الخطاب من يدى وفتحه وبعد أن تصفحه ، سلمه لى وقال : " لا توجد مخدرات أو بودرة ، أو أشياء خطرة ، امرأة فاجرة حليقة الشعر ، تركت لمجنون بعض الكلمات الغامضة ."

حملت المظروف فى كفى ، وأخفيته فى جيبى خوفًا من خطفه ، وذهبت بعيدًا فى أركان المحطة ، حينما اطمأن قلبى بأنه لا أحد هنا ، فتحت المظروف وقرأت بصوت عالٍ كلماتها الملتاعة : " انتهيت منك ، لم يعد لديك شيء تمنحنى إياه ، أعترف بفشلى فى علاجك ، وأقر بنجاحك الباهر فى اغتيال مشاعرى ، لم يعد لى خيار ، فقلبى المحاصر لا يقوى على الصراخ ، أراك تتمزق ، رغم عيونك المشرقة بالحب ، لكنك لا تعرف إلا طريقًا واحدًا ، أعترض عليك ، ولن أعطيك فرصة أخرى حتى لو كنت تتعذب وتشقى من أجل حياتى ".

" تتقدم للأمام بخطوات للأمام ، لكنى أحسها للخلف ، روحك مظلمة ، رغم أنك غارق فى النور ، مازال العفن يسرى فى دمائك ، رغم مقاومتك الباسلة ، لن تنجح أبدًا يا سافل ".

" لن أعلن السر؛ لأنك رفضت الاعتراف بالامتنان ، ولأنك أعمى ولم تحس نور قلبى وأنا أدفئك كل ليلة لتمنع الحرائق التى طالت المدينة ، سأهجرك لأنك تسبب لى الخزى والعار ."

" يجب أن تعلم إذا كنت ترغب أصلاً فى الوصول إلى الحقيقة بأن قناعك الذى ترتديه مكشوف للجميع ، نفس الشفاه التى تخرج كلامًا معسولاً ، هى الشفاه التى أعلنت هويتى ، وجلبت الأغراب الذين لوثوا المدينة بسبب تواطئك ".

" أيها " الفؤاد" الذى يعتقد أنه الملك ، أنت مازلت تدفع الجزية لتحيا وسط القمامة ".

" سقطت من عقلى وقلبى ، ولم يتبق لك سوى مملكة الظلام ، اغتلت عصفورى الطليق المغرد ، دمرت أحلامى بخداعك ، لم يعد قلبى يبتهج لخيانتك أهلك ومدينتك ، سأستريح منك أخيرًا وأغادر مملكتك التى تمتلئ بالخفافيش والسراديب المظلمة .

" سرقتَ حياتى ، واكتشفت أخيرًا رغم العمر الطويل الذى وهبته لك ، بأننى كنت وحيدة ، لم تشاركنى بهجتى أو حزنى ، خلال سنين عمرى الفائتة ؛ لأنك كنت مشغولاً بتاج المملكة ، لا أحتاج بركاتك ، كنت فقط أحتاج تنصيبك كفارس متوج على عرش امرأة كانت تحلم بكونك مخلصها الوحيد ".

" كنت آمل أن أفخر بك ، أديت المهمة ، وأنذرتك كثيرًا ، وسخرت منى ، أعلم أنك تعيش اليوم فى رعب قاتل ، لكن هذا هو الطريق الذى اخترته ، الآن فككت قيدى المربوط بسلسلة قلبك المظلم ، تحررت من عبء مشاعرك المترددة الحائرة ، بين جنتى وظلام روحك ".

" إذا رغبت فى أن ترانى مرة ثانية يمكنك الذهاب للشط الذى يقابل الجزيرة ، وترفع لافتة كبيرة تعلن فيها الحقيقة ، وتنادى من أعماق قلبك على اسمى ، هل تعرف اسمى ؟ أنا " لا شىء" ، لأننى لم أستطع أن أفعل شيئًا تجاه غدرك".

(٤)

اقترب منى شخص لا أتذكر أين رأيته وسألنى كأنه يعرفنى : " هل غادرت غالية؟ " لم أرد ، فسألنى :" هل كانت صديقتك؟ " لم أرد ، فتركنى وحيدًا وسار باتجاه الرصيف المقابل ، سمعته يسبنى قائلاً : " نجت من ظلمك ونفدت بجلدها " .

اندهشت لحكمته التى ألقاها بهدوء ، ظللت لساعات بالمحطة مذهولاً من الموقف الذى وصلت إليه ، كأننى أؤكد قول الرجل الذى يعرفنى ، فقلت لنفسى رغم الأسى : " نجت غالية من ظلامى" ، كنت أتوقع أن أقابلها لتحضن قلبى وتجرنى لقاعة السينما ، وتجلس بجوارى لتشفينى ، تفتح مسمات جسدى البارد ، ليحس بالبهجة من المشاعر المتدفقة بالقاعة وشاشة العرض ووشوشات الأحبة ودفء أرواحهم .

كنت أتوقع أن تأخذنى بعيونها لتقول: " حقك علىَّ ، تركتك جاهلة لأبحث عن مخلوط العشق الذى سيشفى روحك ويعيد لك الذاكرة من جديد ".

كنت أتمنى أن أتحسس يدها ووجهها وشعرها ، لكنها غادرتنى ، وتركت رسالة من لا شىء ، العالم المملوء بالعجز حولى يدمرنى ، الوجوه العابثة التى تمر أمامى محبطة وهاربة من المجهول ، وتلبس القناع لتبتهج وتضحك على الدنيا متناسية الآلام .

قررت الرجوع والذهاب لشاطئ النهر ، تساءلت بغرابة بعد أن عاودت فتح الرسالة " لماذا ذكرت الجزيرة برسالتها؟ " هناك شىء بين السطور يساعدنى على فهم هذا الغموض ، قررت العودة لقلب المدينة مرة أخرى سيرًا على أقدامى ، رغم المسافة المهولة التى تبعد عن المحطة ، لكن الأغراب احتلوا الشوارع المحيطة بالمحطة ونصبوا الخيام والشماسى ، ليبيعوا كل شىء للركاب العائدين والراحلين ، الجميع يتكالب عليهم ، لم أعد أفرق بين من يبيع أو يشترى ، كلهم أغراب وأبناء مدينة قررت خلال أيام أن يفقد أهلها ذاكرتهم ، الوحيدة التى كان يمكنها أن تساعدنى ، وأتعكز عليها ، رحلت ، وتركت رسالة!

أحاول إعادة المشاهد الأولى التى جمعتنى بها فى حدائق المدينة الواسعة ، أو على الشاطئ ، وهى تزرع الأمل فى عقلى وتعيد النكات بقلبى الحزين ليبتهج .

أحاول ، لكن قلب المدينة انفتح أمامى ، لأشاهدهم عرايا ، يملأون الشوارع ويمارسون الجنس فى الخيام وتملأ روائح طعامهم المتنوع السماء.

لا يوجد أحد يعترض أو يستاء ، لم أحس بمجرد رفض أو استنكار لمحو أصيص الزهور التى كانت تملأ الشوارع ، الجميع غائب ، يحاول أن يشترى أو يبيع ، ليضمن العيش بالغد ، بصرف النظر عن القمامة التى تملأ قلب المدينة وشوارعها ، لا يهم ، لا يهم ، فغدًا يمكن رؤية النور ، وكتابة رسائل طويلة تعوضنا عن الفقد ، شىء رائع أن ننطلق بعيدًا ، سالبين من البشر أرواحهم ونترك مقابل ذلك رسالة ، شىء غامض يدعونى لعدم فهم مضمون رسالتها حتى الآن ، بعد أن وقّعتها باسمها الجديد : " لا شىء "، يكفينى فى الباقى من عمرى ، أن أتذكر بأنى كنت على علاقة سحرية مع امرأة تسمى " غالية" ، هى كل شىء ، يكفينى ذلك ، فالملايين بالمدينة يعيشون ويموتون دون أن يتلقوا أى شىء .

(٥)

اجتزت الشوارع والأسواق والمقاهى والباصات ، وجلست مرة أخرى على أنقاض الحديقة بجوار النهر ، قائلاً لنفسى : " لست مجنونًا ، فأنا مازلت أتذكر أخى الكبير عز ، وأختى الصغيرة عزيزة ، وأحس بأيامى الجميلة بالمصنع ، وأتذكر الوجه الضاحك لحسن زميلى بالحجرة ، ومازال طيف السيد نضال وصراخه يأتينى وأحسه ، كلما شاهدت الظلم ".

مازال صدى كلمات السيد " شريف" صاحب المصنع وهو يقرر صرف حوافزى أو طردى من العمل يتردد فى أذنى .

تعاودنى أيام زوجتى الطيبة "أمينة" وهى تحاول تقديم أروع الوصايا لإسعادى ، يمسنى بريق عينيها المباغت وهى تتدفأ بقلبى ، وصوت أولادى الغارقين بالطهر ، أسمعهم يقولون بحب :" بابا أنت فين، بابا هتيجى امتى؟ تعال بقى وحشتنا ، متسبناش تانى أرجوك " ، مازالت رسومات " ريم" وألوان لوحاتها تدفئ أحلامى .

مازال لجارى " وافى" وزوجته "وفية" ، مكان غالٍ بقلبى ، الآن فقط أصبحت لى ذاكرة حية ، نعم كان لى أب يسمى "الطيب "، يفتح محلاً لبيع الزهور ، ويسمى البشر بأسماء النباتات ، كان ينادينى كرمز لزهرة " الفل" .

الآن أتذكر أمى "روعة" التى خلقها الله من نور الملائكة ، رغم أنها عاشت مع أبى بمحل الورد معظم أوقات اليوم ، لكن الساعات التى قضتها بمنزلنا ، لا يمكن أن تنسى ولا يمكن لأحد أن يفقدنى الإحساس برائحة طعامها وبهجتها وحبها ودموعها .

نعم هجرنى صديقى " مخلص" لكنى أعرف منزله وزوجته " هنية" وابنه " هانى" ، قلت لنفسى بغرابة : " مهما طال الزمن فإن المدينة خالدة بقلبى " ، ولكن ما الذى حدث ؟ لماذا أصيب أبنائى بالخرس والشلل ، وهجرنى الجميع ونعتونى بذيل الكلب ؟!

لا يهم ، لا يهم ، سيأتى يوم ويفهمون كل شىء ، أحلام بعيدة تأتينى وتغيب ، أشاهدهم جميعًا مرة أخرى مجتمعين حولى ويطبطبون علىَّ ويقولون: " نعم تستحق أن تحيا بيننا ، لا تخف ، أيام صعبة وتمر ، سيعود كل شىء أفضل مما كان ".

لكن هل تعود " غالية" ، يجب أن أفهم رسالتها ؛ لأنها تحمل السر ، يجب أن أفتحها مرة أخرى وأقرأها قبل حلول الظلام .

الآن أستطيع أن أضحك وأثق مرة أخرى بنفسى ، رغم كل هذه الأحداث ، نعم أستحق أن أحيا لأبلغهم برسالة " غالية" وبالأيام الجميلة ، وبالغد المشرق الذى ستظهر فيه الحقيقة ، عاودتنى فجأة فكرة الانتحار ، لكننى قاومتها هذه المرة بضراوة وقوة ، أحسست بأنها خرجت من روحى للأبد ، قلت لنفسى :" لا يهم ، سأظل حيًّا رغم الكوارث ، يكفينى أننى تلقيت رسالة من لا شىء ! "

" أسى "

(١)

نوبات الأرق تمزق جسدى ، الأحداث تتلاحق وتتناثر فى عقلى ، المشاهد التى جمعتنا والتى تنتظرنا تقتحم قلبى وتدفعنى للجنون مرة أخرى ، أتخيلهم جميعًا حزانى غير راضين على حياتهم التى سلبت منهم ، ينظرون بحقد إلى عينى باعتبارى الملاك الذى فقد عذريته وقرر الرحيل .

قلت لنفسى : "يجب تذكر كل شىء ، مازالت اصواتهم ترن فى عقلى ، هيا يا فؤاد ، يمكنك أن تعيد المشاهد الأخيرة دفعة واحدة ، أرجوك ، لا تنس شيئًا ، حتى يعيد وعيك النبض إلى قلب المدينة من جديد ".

فى لقاءاتى الأخيرة بهم حاولت أن أواجه هذا الوهم ، لأنشر السعادة بقلوبهم ؛ لأنهم منذ الآن يمكنهم أن يتعكزوا على أياديهم وأبنائهم وقلوبهم ، ويستكملوا الرحلة دون وجودى .

حاولت أن أطمئنهتم على المستقبل ، لكنهم نظروا بُكْرهٍ ناحية فمى الذى ينقط السم على أرواحهم ، مقررين بأننى الوحش الذى هدم المعبد فوق رؤوسهم .

بادلونى نظرات الطمع والغل ، اتهمونى بالاستيلاء على أرواحهم ، ثم بكوا بحرقة وتركونى صامتًا ، لم أتمكن من استكمال حديثى ، رغم نيتى الطيبة ؛ لأنه كان يأتى بنتيجة عكسية!

الارتعاشات تعاودنى ، تصيب أنحاء جسدى ، العرق بلل ملابسى ، فجأة تذكرت " غالية" ، فقلت لنفسى : " لم تكن فقط حياتى ، كانت الطريق الذى آوانى وأرشدنى ونجانى ".

لكن الغريب أنها قالت فى رسالتها الأخيرة :" الآن فقط انتهيت منك ، لم يعد لديك شىء تمنحنى إياه ، " اندهشت لأننى لم أتصور قط أننى أملك شيئًا يحتاجه الآخرون!

كانت رفيقتى وضى عيونى كريمة معى لاعتقادها بأن روحى المحطمة يمكنها إنعاش قلوب الأطهار !

كانت جميلة وهى تسير بجوارى ، تتحدى الكون ، وتمسك أصابع يدى بأطرافها وتلف بها ضفائرها المحلولة ، وتضحك كأنها الحياة التى نأمل أن نعيشها ، لكنها فجأة تذكرت بلاهتى فكتبت فى رسالتها : " أعترف بفشلى من كونك الرجل الذى أتمناه ، هدمت مشاعرى وأحاسيسى وحطمتنى ، اغرب للأبد ".

يا ألله ! كيف تصورتنى وحشًا ، رغم أنها ملاكى الوحيد ؟! الارتعاشات تعاودنى ، الألم ينتشر فى خلايا جسدى وأطرافى وعظامى ، لا أستطيع نسيان نظرات زملائى بالعمل لقلبى وقولهم فى غل : " أنت معنا أم مع صاحب العمل " ، لم أفهم أن طريقهما مختلف ، فأنا أذهب للعمل منذ زمن بعيد ، أمارس هوايتى فى تسجيل البيانات والوارد والمنصرف ، وحين تدق الساعة الثانية ، أكون قد انتهيت من ورديتى .

عودت نفسى أن أكون صديق الجميع ، لكن حين هاج العمال بأقسام الإنتاج وتجمعوا أمام المصنع وقرروا الإضراب ، طالبونى بالوقوف بجانبهم وقيام صاحب العمل باجباري علي تزوير الفواتير ، لكنى طوال هذا العمر لم أكن أهتم بمعاداته ؛ لأنه فى النهاية هو الذى يعطينى الأجر لأسلمه لزوجتى " أمينة" لتفتح البيت .

حين قلت لهم الحقيقة ، بأننى لست مهتمًا بأن أكون فى صف أحد ، قال رئيس العمال السيد " نضال" : "تعودنا منك ذلك يا ديل الكلب " ، وبصق زملاؤه فى وجهى كأننى ذبابة ، رغم ذلك فإن صاحب العمل طلب منى الشهادة بمكتب العمل ضدهم ، رفضت فأطلق صراخه بوجهى قائلاً : " أنت معى يا فؤاد ولا معهم " ، لم أرد وقتها ، ولم أكن أهتم بصف من فيهم يجب أن أكون ، ورغم رفضى الوقوف مع زملائى فى الإضراب ، قرر خصم عشرة أيام من راتبى دون سبب ، ثم نظر إلى وجهى ، وهو يلقى تعليماته بالخصم مفترسًا عيونى وكأنه يدهسنى ككلب ضال ، قائلاً : " حسابى معاك بعدين يا ذيل الكلب " .

خرجت من المصنع حائرًا من الأحداث الغريبة التى تمر بها حياتى ، محاولاً فهم أى شىء ، لكن دون جدوى ، المصائب توالت فوق رأسى دون إمكانية واحدة لتوقفها .

حين رجعت للبيت الذى كنت أسعد بدخوله ، فوجئت بزوجتى تتوسط الصالة بشعرها المنكوش ، وتسب أولادى المرضى ، حين شاهدتنى بعد دخولى من الباب ركبتها العفاريت ونطقت بعد انحلال عقدة الخرس بلسانها ، وصرخت وسط هول المفاجأة التى ارتسمت فى عيون أبنائى : " إيه اللى جابك دلوقتى يا سى زفت ؟! "

حاولت فهم سبب صراخها ، لكنها لم تتوقف عن السباب ، وطلبت من ابنى وابنتى الدخول إلى حجرتهما ، فى محاولة لتهدئتها وقفت مستسلمًا أداعبها بعيونى ، لكن هيهات ، فالغل زاد ، والقهر ظهر مرة واحدة ، لأفاجأ بها تمسك بيديها سكينًا وتطلب منى كأمر ، بألا أعود مرة أخرى للمنزل ، وإلا ارتكبت جناية قتل.

دون أن أرد ، ترجلت حتى باب الشقة ، ونظرت ناحية أولادى الصامتين بحب ، أغلقت الباب بهدوء ونزلت ، محاولاً استبيان علامة واحدة على الأحداث الرهيبة التى انفجرت مرة واحدة بوجهى .

دون تردد توجهت إلى الحديقة التى تطل على شاطئ النهر ، متمنيًا رؤية رفيقتى " غالية" ، لازمتنى كطيفى طوال سنين طويلة ، لكنها قالت فى رسالتها الأخيرة : " انتهيت منك " ، لم يعد أمامى الآن خيارات بعد أن حاصرونى جميعًا سوى الحديقة ، سأجلس على ضفاف النهر محاولاً استدراك ما جرى وإعادة المياه لمجاريها .

لكن قلبى المحاصر لا يقوى على الصراخ ، الجميع قالوا مرة واحدة : " لا فائدة تُرجى منك ، لن تتغير اليوم أو بعد غد ، كل يوم تثبت ببلاهتك وسلوكك المستهتر بأنك خرقة بالية وسط الضجيج ".

كانت مراكب الصيادين على الشط تمتلئ بالحياة ، جلست فى ركن بعيد عن موقف المعدية ، الشمس تلفح وجهى ، مياه النهر المتدفقة تداعب المراكب وأجساد الأطفال الذين قرروا دفن أرواحهم بين ثناياها الرقيقة ، علَّهم يتطهرون .

حاولت أسترجاع ما حدث ، لكن الصيادين تشاجروا فجأة مع بعض الصبية ، ، تجمع العشرات من الصبية بسنج وسكاكين طويلة ، رفع الصيادون المجاديف فى محاولة للدفاع عن أنفسهم ، رغم أننى ابتعدت كثيرًا عن النهر وموقع المعركة ، فإن الغارقين بدمائهم ، جروا أمامى

وهم يمسكون السواطير ، مطالبين أقرانهم بالعودة مرة أخرى لحرق مراكب الصيد دون أن يذكر أحد منهم سببًا وجيهًا لهذا الغدر؟ تساءلت وحيدًا : " كيف يعاود الصيادون عملهم فى النهر بعد نزيف الدم الذي اغرق النهر ؟ وأين أذهب أنا الآن؟ "

(٢)

لم أكترث كثيرًا خلال عمرى الطويل لما يدور حولى ، أدَّعى بصدق أننى عشت حياتى بالطول والعرض ، أعطيت كل ما لدى وأخذت بيدين وقلب مفتوح كل شىء .

أتذكر فى اليوم الأخير حدوث شىء غير متوقع ، الآن تعاودنى ذكرياتى لأكتشف جرمى الذى تسبب فى كل ما حدث من انهيار ، نعم ، انفجر الجميع ضدى نتيجة غلقى الموبايل يوم الجمعة ، وتغيير عاداتى التى اعتادها الآخرون سنين طويلة .

لا يمكن لعاقل أن يصدق أبدًا ، أننى ظللت خلال عمرى المنصرم ، أستيقظ يوم الجمعة كعادتى فى الصباح الباكر ، تاركًا زوجتى وأولادى نائمين ، أنزل للشارع ، أشترى الجريدة وأجلس على المقهى فى هدوء أقرأ الأخبار ، وعندما تدق الساعة العاشرة أقوم متوجهًا للمطعم أشترى الفول والطعمية والبيض وأعود للشقة دون أن أنبس بصوت ، أجهز الإفطار لعائلتى الصغيرة النائمة كالعصافير .

حين يستيقظون يجدون كل شىء جاهزًا ، يغسلون وجوههم فى حب ، يجلسون بجوارى على المنضدة ، يتناولون بعشق طعام صباح الجمعة المقدس الذى أتفنن فى صنعه ، يصبح كالوجبة الأخيرة ، التى تنتظرها الملائكة ، ليستكملوا أسبوعهم بشكر وحب منقطعِّ النظير .

هل يستحق العالم الذى نحيا بين جنباته ، لأن نستكمل عاداتنا وحياتنا دون تذمر يذكر ، دون غلق الموبايل ليوم واحد ، دون التيقظ كل يوم فى الساعة السابعة للذهاب لنفس العمل ، دون تغيير عاداتنا ليوم واحد ، يوم واحد فقط ؟!

نعم أتذكر الآن سبب مأساتى ، حين غيرت هذه العادة يوم الجمعة ، حدث ما حدث وتغير العالم ، لينبذنى الجميع ، قائلين فى نهاية اليوم : " نعم يستحق الموت ككلب " .

لم أكن أعرف أن النوم حتى الظهر ليوم واحد ، بعد تيقظ دائم خلال الدهور الماضية ، يمكن أن يؤدى إلى هذا الجحيم ، ويحرق الدنيا من حولى .

فى هذا اليوم بعد أن غرقت فى النوم على غير عادتى ، أيقظتنى زوجتى وأولادى وهم يلتفون حول السرير معتقدين أننى ميت .

فتحت عينى ، ووجدونى حيًا ، أنزلوا السباب اللعين فوق رأسى ، وقالت زوجتى وتابعها أولادى : " أين فطارنا ؟" على الرغم من أننى قلت لهم: " سأذهب سريعًا لإحضاره " ، لكن الغل البادى من عيونهم ، يقول : " نعم أجرمت يا فؤاد الكلب ، لأننا صحونا قبلك ، أنت منبوذ لأنك تجرأت ونمت على غير عادتك حتى الظهر يومًا وحيدًا ، فقلبت حياتك رأسًا على عقب" .

صرخت زوجتى قائلة : " سنأكل لحمك الآن يا بارد ، أين فطارنا ؟! " لبست سريعًا ، وهرولت نحو الباب دون دخول الحمام ، محاولاً استدراك الخطأ ، لكنها قالت وأنا أنزل درجات السلم مسرعًا : "لا ترنا وجهك ، لا تعُد مرة ثانية إلينا يا غادر ".

لم أجد إلا النهر الذى يحيط بالحديقة من كل جانب لأنزل بجواره ، أحتمى بمياهه المتدفقة ، وأشجاره التى تطل على ضفافه ، أضفت روائحها على روحى الأمل والخير ، لكنَّ الصيادين قد غادروا الشط باحثين عن الرزق ، والناس مازالت نائمة تتجهز لصلاة الجمعة ، ولم تأت للمعدية لتنقلهم ليقتاتوا عيشهم .

وحيدًا جلست على الضفاف ، أحاول فهم الأحداث ، فجأة طافت على سطح المياه بقايا ملابس قديمة وأحذية متهالكة ، ضربت إحدى الجلاليب القديمة الطافية قدمى ، فارتعشت ، وجاءنى إحساس بأن حنش النهر المخيف سيلتهم قلبى .

انحنيت بجسدى مبتعدًا بقدمى عن المياه ، وقررت المغادرة ، لكن إلى أين ؟ لمن اتجه بعد طَرْدِ أخى وأختى لى من منزل العيلة ، واتهامهما لى بالجحود ؛ لأننى رفضت بيع الحجرات التى أذهب إليها كل جمعة لأتونس بدفء معاشرتهما ، وأتعرف على أبنائهم وأبادلهم الهمس الطيب .

قلت لهما : " إذا بعنا البيت وتقاسمنا ثمنه ، فأين سأقابلكما وأتعرف على أحضان أبنائكم ولون عيونهم ووجوههم ؟"

قررا أنى خسيس ، لا أحس بظروفهم ، وأدعى حبهم بالغش ، لرفضى البيع ، لتحسين حالهم ، قال أخى الكبير : " ستبيع ورجلك فوق رقبتك ، أنا أخذت العربون من الناس ، لا يمكن أن تجعلنى أمامهم طفلاً صغيرًا " .

ردت أختى : " أنت لا تعرف لمن سنبيع ، إنهم أبناء السوق التجارى الذين يمتلكون نصف الشارع ، وهم بالفعل اتفقوا معنا ، ولن يتراجعوا ، حتى لو قررنا عدم تسلم الثمن ".

رغم كلامها الناعم ، لكنها نعتتنى بالسافل ؛ لأن ابنها الفاشل ، يحتاج قرشين ، ليفتح محل اتصالات ويبيع كروت الشحن ، وأنا نتيجة كرهى لهم ، أرفض أن يبدأ عملاً شريفًا ، يضمن له دخلاً وزواجًا وحياة سعيدة .

قررت فجأة الذهاب لمنزل العائلة ، ومقابلة أخوىَّ وإبلاغهما بموافقتى على طلبهما بالبيع ؛ إذ لا تهم الأماكن والذكريات بقدر الحفاظ على العشرة والأخوة ، حين اقتربت من المنزل صعقت من المشهد ، كانت لوادر جبارة تهدم حجرتى ، وتدهس سريرى الذى كنت أنام عليه كل يوم جمعة وسط أخوىَّ وأبنائهما .

قلت لأحد الواقفين وهو يعطى الأوامر منتشيًا : " هذا منزلنا من سمح لكم بالهدم ؟" نظر ناحيتى بغيظ قائلاً : " أخوك وقّع بالأمس على العقد ، أنت لا تعرف أن والدك باع له المنزل وأختك شاهدة على العقد ، إذا كنت ترغب فى شىء ، فليس أمامك إلا المحاكم ، ورقنا سليم ، وموقَّع من البائع والمشترى ومسجل من الأب إلى الأخ الكبير " ، أنهى كلامه بتقديم الشاى ليؤنس وحدتى .

تركته وتوجهت إلى منزل أخى ، وجدت أختى تجلس معه فى صالة شقته المملوءة بأولادهما ، ألقيت السلام عليهما ، لم يردا ، ظلا مندهشين لوجودى ، قلت لهما : " أبناء السوق التجارى يهدمون منزلنا " ، رد أخى " عز" قائلاً : " ليس لنا منازل بالسوق ، أنا بعت " ، قلت : " وأنا ؟ ألست أخاكم ، وأرث مثلكم؟ " قال : " ريقى نشف معاك ، لكن مادمت عاندت ، لازم تعرف إنك ملكش حاجة ، وأن أبوك باع البيت قبل ما يموت لى ، وأختك شاهدة على العقد ، أنا كنت عايز محسركش ، لكن أمام إصرارك ، لم يكن أمامى إلا هذا الطريق " ، حين طالبته بنصيبى ، ضحك عن آخره ، وقالت أختى " عزيزة" : " مش قلت لك ده أهبل" .

استكمل أخى : " البيت بيتى والعقد مسجل بالشهر العقارى " ، حاولت أحتضان ابنته ، لكن الجميع رفض وجودي ، هرول أبناؤهما للحجرات وتركونى ، استنجدت بأمى وأبى ليوصلا حبل السرة مع أخوىَّ ، لكن هيهات ، انقطع الحبل إلى الأبد .

قررت المغادرة ، تركتهم بعد أن رميت السلام ، لم يردوا ، استمروا فى نقاشهم حول مكونات المحل الجديد لابن أختى ، والفرش الذى سيحضره أخى لابنته يوم عرسها المنتظر .

سرت حتى باب الشقة وألقيت نظرة أخيرة ، بالفعل لم أكن موجودًا ، فقررت استكمال سيريا ونزلت السلم متوجهًا مرة أخرى إلى النهر ، علَّ ذرات مياهه ترطب قلبى الجاف .

(٣)

اليوم أعيش حالة غريبة ، الصرخات حولى تدفعنى للتساؤل باستمرار كالتائه : " من أنا ؟ ألم يكن لى إخوة وأصدقاء ومنزل وأسرة وعمل وجيران وحبيبه ؟ كيف تخلوا عنى فجأة ، أو تخيلوا أننى وحش جبان ؟ ألا يريدون أن يروا قسمات وجهى مرة أخرى ؟ هل حدث شىء يستحق كل هذا الحزن الذى شاهدته فى وجوههم بالأيام الماضية ؟ نسوا فجأة العشرة الطيبة والمدينة الرائعة ، أفقدوا الذاكرة ليطلبوا منى بإصرار عجيب ، كذيل الكلب الأجرب ، ألا أريهم وجهى للأبد ؟"

لن أستسلم ، سأذهب حالاً لبيت صديقى وأعتذر له عن شىء لا أعرفه بَدَرَ منى وسبب هذا الشرخ بيننا ، ركبت التوك توك وقلت : " شارع النجاة يا باشمهندس ؟" لم يسمعنى بالمرة ، لارتفاع صوت الكاسيت الذى يعلقه بأحد الأركان ، قال بصوت عالٍ : " شارع إيه يا باشا ؟ " صرخت : " النجاة ...النجاة " .

جرى سريعًا كالفأر من وسط الناس ودخل الشارع الواسع ، وسألنى : " هتنزل فين يا فندي؟ " فقلت صارخًا : " توقف هنا "، أعطيته بعض الجنيهات الفضية ، فنظر بغيظ وقال : " مفيش ملطوش كمان؟ " بادلته نظراته القاسية بحب وود ، وأخرجت جنيهًا إضافيًا ووضعته فى يده ، طار بعيدًا عنى وصوت المذياع مازال يصدر حشرجات عالية.

المحلات والسيارات الكثيرة ، البشر العائدون من منازلهم وعملهم ، النساء المحملات بأكياس الخضر والفاكهة واللحوم ، أغلقوا الشارع تمامًا ، رغم ترجلى ومحاولة انسحابى من وسط تجمعاتهم لأصل إلى مدخل المنزل ، فإننى ترددت وأنا أقف على أول السلم ، لأنى لم أتصل به قبل حضورى ، قررت مواصلة السير حتى باب شقته ، قلت فى نفسى : " قد تكون المفاجأة سببًا لحل المشكلة وتدعوه لغفران جريمتى التى لا أعرفها.

دققت الجرس ، فتحت زوجته " هنية " نصف الباب وقالت : " مين ؟" قلت بود تتعوده : " أنا فؤاد، فؤاد ضرغام ، مخلص موجود ؟ " لم ترد وانتظرت قليلاً ، ثم عادت وقالت بغضب : " بيقولك هو مش موجود " ، وأغلقت الباب بوجهى .

وكأنها دلقت علىَّ جردل وسخ ، تساءلت ببلاهة : " أهؤلاء البشر عاشوا معى بالمدينة ؟! "

وحيدًا عدت أدراجى إلى النهر ، طوق الحب الباقى فى هذا العالم ، تذكرت عاداتى التي لم اغيرها طوال أعوام كثيرة لا أعرف عددها ، كنت صباح كل جمعة اقوم بزيارة أخوىَّ وصديقى وجيرانى بالمدينة ، وحين نسيت وتمردت ليوم واحد ... نكرونى !

كاد البكاء يغرق عيونى ، فصديقى الوحيد الذى خرجت به من الدنيا وظللت متدفئًا بحبه ومذهولاً بقلبه ، يرفض رؤيتى ويطردنى من أمام شقته ، لم أتخيل قط البغض والألم اللذين تسببت فيهما ليطولا عيونه الطيبة ، فيرفض رؤية وجهى للأبد ، حين رآنى على النهر منذ أيام ولم يهتم لنداءاتى ومحاولاتى بالاعتذار ، قائلاً بغضب وغموض : " ابعد يا ذيل الكلب" .

الارتعاشات تعاودنى ، اليوم تطورت حالتى للأسوأ ، فنوبات الهلع ، طالت يدى وقلبى وقدمى ، وعدت لا أتمكن من السيطرة على أطرافى وحركاتى بالشارع .

مرة أخرى يعاودنى السؤال وأنا أهرب من السوق : " ماذا حدث لتنهار حياتى ، ويرفض وجودى كل من حولى؟ " تائه أنا ، بين حب من عاشرونى ، وبين طبيعتى الجديدة المرتعشة المتناقضة ، العاجزة عن فهم ما يجرى فى هذا العالم الصغير .

التزمت سنين بكل القوانين التى وضعوها ، أستيقظ مبكرًا ، أذهب لمدرستى وعملى ، أتزوج وأنجب أطفالاً ، أحافظ عليهم ، وأحترم زوجتى ، ورغم علاقتى الطيبة برفيقتى " غالية" التى تخفف عنى أعباء الحياة ، لكننى أخلص لأصدقائى وجيرانى ، وفى يوم عادى أقرر النوم حتى الظهر وأغلق تليفونى ، فيتهموننى بالحنق ، ويرفضون رؤية وجهى مرة ثانية .

أى عقاب قاسٍ أنزلته السماء ، لتقتص من طيبتى وروحى المسالمة ؟! لكن النهر وحديقتى لم يبخلا علىَّ ، كان الكورنيش يقترب ، الضجيج يملأ الشوارع ، المحلات ترفع أصوات مسجلاتها ، الجميع بالشارع يضع على أذنيه الموبايلات ويتحدث غير عابئ بمن حوله ، الشارع يمتلئ بالبشر الأغراب الذين لا يعرفون بعضهم ، ومع ذلك يضحكون عن آخرهم وهم يلصقون التليفون بخدودهم .

أحس بروحى مهجورة ، انتابنى إحساس بأننى ميت ، أحاول الخروج من المقبرة ، يشتعل الحريق من حولى ، لا يوجد مكان واحد يمكن أن يستقبلنى ، غدًا ستحزن حبيبتى " غالية " لاتهامى بالغدر والخيانة ، ستتصل وتعتذر عما جرى منها ساعة غضب .

لكنها قالت فى رسالتها : " انتهيت منك ، لم يعد بقلبى إلا حطامك " ، أجرجر أقدامى ، وأحاول تلمس الهواء الآتى من النهر الغارق حول المدينة ، أتابع عن كثب أصوات البشر المفزوعين الصارخين وهم يمرون بجوارى ، يتحدثون بتليفوناتهم غير عابئين بما حدث بالمدينة ، أتساءل بدهشة : " ماذا جرى ؟ ومن أشعل الحرائق فى قلوبهم لتسحق ما بيننا ، وتجعله ترابًا وماءً ، وليس دماءً وعشرة وحبًّا؟ "

يخبطنى توك توك مسرعًا فى اتجاه عكسى ، أقع على الأرض ، يصرخ المارة حولى يتجمعون فى رغبة لرؤية سقوطى ، يندهشون لقيامى دون جروح ، نظرات عيونهم توحى بتوقعهم رؤية دماء تسيل من رأسى ، أو كسر بقدمى أو بيدى ، حين قمت ونفضت التراب عن ملابسى ، وسرت بنفسى فى اتجاهى ، سمعت بعضهم يسبنى وينعتنى بالأعمى .

قلت : " لن أنتظر المزيد من الكيروسين لأضعه عليهم " ، القدر سيمكننى من استكمال الطريق ، هذه النار المشتعلة بقلوبهم يجب أن أطفئها بداخلهم ، بصرف النظر عن دورى المستمر فى حرقهم .

يجب أن أعمل شيئًا ، أى شىء ، وإلا التهمت النار كل الحب بداخل أرواحهم ، كان النهر يقترب ، سمعت دفقات مياهه العذبة تدندن بأذنى ، ظهرت أمواجه البعيدة كأمل للنجاة .

قلت لنفسى : " ماذا جنيت لتنتهى رحلتى بمأساة جماعية ، لم يعد أحد يعرفنى ، يتمنى الجميع محاكمتى وقتلى ، ماذا جنيت لأجلب كل هذا الأسى لقلوبهم ؟ "

أيكفى أن أعتذر عن جرمى الذى لا أعرفه ، لكن القدر أمهلنى بفكرة ، يجب تسجيل لكل منهم شريطًا ، أُذكِّره فيه بالحب الذى نما بيننا ، والعشرة الطيبة التى لا تهون على قلبى المحب ، يجب أن أكتب على الحوائط أسماءهم بحب ، وبخط كبير واضح ، سأرسم صورهم مبينًا ملامحهم ، وأنقش تحتها كلمات الاعتذار ، لعل ذلك يعيد إلى قلوبهم الرحمة ويقبلوننى بينهم كفأر مسالم!

وضعت قدمى على حشائش حديقة النهر ، مصممًا على إعادة الحب الذى يملأ روحى ، يجب أن أنشره بكل اتجاه ، تذكرت فجأة عيون زوجتى البائسة وهى تطردنى قائلة : " أرجوك ، لا تأت مرة أخرى إلينا ، أرجوك انتظر قليلاً ، نحن لا نرغب فى رؤيتك مرة أخرى ، أنت تحبنا فعلاً ، نحن نتفهم ذلك ، لكن أرجوك لا تنغص حياتنا ، إذا رغبت فى رؤية أولادك كل فترة ، فسوف أرسلهم إليك فى أقرب نادٍ أو مقهى ، لكن أرجوك ، اتركنا بحالنا ".

أجلس وحيدًا كيمامة على ضفاف النهر تحت شجرة الليمون الباقية من المجزرة ، أحاول متابعة ما يجرى حولى ، امتلأت المعدية بالبشر الذاهبين لمنازلهم بالجزيرة ، يدفعوننى مرة أخرى دون إرادتى لرؤية مشاعرهم البريئة وهم محملون بأكياس الخبز واللحوم ليملأوا ثلاجات بيوتهم ، كأن الحقد عليهم قد دخل قلبى ، تحسست بهجة أسرهم وهم يستقبلونهم بوجوههم البشوشة ، كأنهم يقولون لهم : " أهلاً وسهلاً لعودتكم سالمين "

كاد الحب يطير من عيونهم ، وهم يتلهفون على الوصول إلى أبواب منازلهم المغلقة ، منتظرين نظرة الرضا من أحبابهم ، ليضعوا أكياسهم على الأرض بعد معاناة طويلة فى السوق ، ويتمددون على الكنبة أو الحصيرة ، ويقولون بحب : " شكرًا لك يارب " ، قلت لنفسى بحنق : " أى برود وجبن يعشش بروح هؤلاء الأوغاد الغرباء ؟! "

(٤)

الصمت يغادر المكان ، الشاطئ يكتظ بالبشر الغرباء مع دخول الليل ، أطنان من حلل الكشرى والفول المدمس الحامض يتم تفريغها بمياه النهر ، ولا أحد يتحسر على حجم الكارثة التى تلحق بروح الجميع ، الأطفال الصغار يهجمون على الحشائش والأشجار ، يحاولون خلعها ، لا حرس ولا منقذون ، أين ذهبت هيئة المصلحة الأهلية ورجال الدفاع المدنى ؟

يقترب الصبية من النهر ، ناظرين إلى مياهه المتدفقة بعناد، كأنهم يرغبون فى ركوبه حتى نهايته ، يقذفنى أحد الأطفال بالكرة فى وجهى ، تصرخ أمه معتذرة وتقول : " معلهش يا خويا دول عيال ولاد شياطين " ، يقترب أحد الصبية من فتاة تنظر إليه بحب ، ويهمس فى أذنيها فتضحك ، أحس بغيظ يملؤنى ، كأنهما يضحكان على رجل ناضج قرر فجأة الجلوس وحيدًا على الضفاف .

أغادر الشط إلى شوارع المدينة ، متوجهًا إلى المجهول ، أشاهد أخى يمر من وسط السوق ، أقترب منه ، يلمحنى من بعيد ، يرافقه شاب وسيم ، لكنى لا أعرفه ، اعتقدت أنه خطيب ابنته ، ربما كان شريكه الجديد فى المقهى الذى يرغب فى فتحه .

يبعد عينيه عنى ، كأنه يفسح لى الطريق لأمر ، حتى لا يرانى ، أمرُّ من جواره دون أن ينظر إلى وجهى ، تفرست فى عينيه ، نظرت ناحيته بقوة ، لكنه تراجع مع رفيقه الشاب لناحية أخرى ، لأمر دون أن يرينى نن عينيه الخائف .

لماذا ابتعد بوجهه بعيدًا؟ لماذا لا يريد أن يرانى ؟ لست حزينًا على بيع البيت دون إرادتى ، أو حتى أخذه نصيبى عنوة ، هل هو خائف منى ، أم على نفسه ؟

لماذا يؤجل النظر إلى عينى ؟ هل يدرى بهجران زوجتى ورفيقتى وطردى من العمل للشوارع ؟ هل يحس بهجوم الأغراب على كل خرم بالمدينة ليغتالوا الباقى منا ؟ لو كان يعلم لأتى مسرعًا ، واحتضننى وبكى على صدرى ، وقال بحب : " أنا باقٍ لك ، لا يهمك شىء ، أنت أخى ابن أمنا روعة ووالدنا الطيب الذى كان يناديك بالفل ، لا تخف يا فؤاد فيكفى أننى أعرفك " .

أنسِى حنانى وطيبتى وحبى لأولاده ؟ أم هو خائف من مطالبتى بمالى وحقى الذى أكله فى بطنه دون أن يصيبه الفشل الكلوى؟! تركنى للمجهول لأستكمل حياتى الغريبة ، غير عابئ بالأوهام أو الحقائق التى دهست حدائق المدينة وزهورها.

سرت غير عابئ بعيونه التى اختفت بعيدًا ، متسائلاً : " لماذا تعطينا الدنيا كل هذه الخيارات المفتوحة بدهشة " ، أفزعنى وجه أحد المارة المتلصصين كأنه جار أخى " عزيز " ، بادلنى النظرات بغرابة مكشرًا بوجهه فى عيونى ، كأنه يقول: " تستحق ما أنت فيه يا أبله! " لماذا تحولت ملامح وجهه الي قرد ، رفع حاجب عينه اليسرى وأغمض اليمنى وهو ينظر بغل ناحيتى ، ثم استدار إلى الناحية الأخرى ، كأنه لم يقصدنى بالإساءة .

كنت أتمنى أن يأتى لحضنى ، ويقول : " مصارين البطن بتتخانق يا خوى ، معلهش أنا هصلحكم على بعض ، متزعلش منه ، ده أخوك الكبير ، وملوش اللى أنت " ، تركنى بوجهه المكرمش ، كأنه خائف منى ، حنق علىَّ بأسى وتجاهل غير متوقع ، تركنى للمجهول وسار فى الاتجاه المعاكس.

نادى بائع البطاطا بجوارى بصوت عالٍ : " البطاطا السخنة " ، تجمع الأطفال حوله وهو يغرس سكينه بحبات البطاطا ليخرجها من داخل صومعته التى تلقى بدخانها الهادئ فى السماء ، كنت أتمنى أن أتذوق طعمها ، اقتربت منه ، ناولته جنيهًا معدنيًا، ودون أن أتكلم ناولنى ورقة تمتلئ بحبات البطاطا المقسومة بسكينه البارد لنصفين ، كأنها قلبى الذى شققته الدنيا قبل الأوان ودون رحمة بعد أن حرقته النار وتفحم كالبصل المشوى .

صرخت امرأة بجوارى فى ابنتها التى تجرها من شعرها وسط الشارع ، دون أن يرق قلب أحد من المارة ليمنع الأذى عن الصبية ، تمنت المرأة أن يأتى أحدهم ويهدئ قلبها الثائر لتشتكى له باكية بلوتها ، لكن المشاعر المبهمة لصهيل الشارع تقف حائلاً بين الموت والحياة .

يغرينى الضجيج النابض على جوانب الشارع والمحلات المفتوحة باستكمال المسيرة دون خوف ، وقفت بمواجهة زميلى بالعمل ودون أن ينطق قلت له : " ازيك يا حسن " ، لم يرد ، ونظر بغرابة ناحيتى ، واستكمل سيره بالشارع غير عابئ بنبرة صوتى الودودة .

قلت لنفسى : " تمكنت من إخراسه إلى الأبد يا متوحش " ، لم يتمكن من النظر إلى وجهى ، عاودتنى الليلة الغريبة التى قرر فيها زملائى الإضراب ، ونعتونى " بفردة الجزمة " ، "وديل الكلب" ، مع ذلك طردنى صاحب العمل فى نهاية اليوم ، بعد أن وجد أن الخصم من راتبى لم يكن ردًا كافيًا على حيادى.

فكرت يومها أننا يجب أن نختار الطرق لنمر منها إلى الحياة ، فلا يكفى أن نعيش مسالمين ، يجب أن تكون لنا عزوة وأحباب ومريدون ، يجب أن نحيا وسط مجموعات ، لا يهم صنفها ، أو لونها ، المهم أن يسمعنا أحد ، أو تسمع آذاننا نحيب الآخرين ، يجب أن نندمج ونتأثر ونؤثر بكلمات رثاء أو حب مدهوشين ، لا يجوز أن نعيش محايدين كالهواء ، يجب أن يشق لحم قلوبنا الحزن ، والحقد والبغض ، كى يقبلنا الآخرون فى صفوفهم .

اقتربت من نهاية الشارع ولم أجد شيئًا ، جلست على المقهى ، محاولاً التفكير فى مخرج للبلاوى ، جاءتنى صورتا أبى وأمى ، يطبطبان على قلبى الوحيد ، هل أفجعتهما ؟ فعادا من موتهما ليواسيانى ، لماذا امتلأت وجوههما بالحزن ؟ أحسست بدموع أبى تنزل على خدودى وهو على فراش الموت ، سمعت بكاء أمى الدائم دون سبب بعد فراقه ، رغم جلوسى وحيدًا سألت نفسى بصوت عال :" لماذا كانت تبكى روعة دائمًا؟ لماذا كانت حزينة رغم زهور أبى وسطوح المنزل الواسعة التى نامت عليها وهى تنظر إلى السماء وتحدث النجوم؟ لماذا كانت حريصة على مداعبة بطِّها وأوزها طوال النهار؟ لماذا كانت تبكى دائمًا حين ترى وجهى رغم أن أبى أطلق على وجهى زهرة الفل؟ "

أى ظلم لامرأة ماتت وعاشت حزينة على ابنها! كانت تأخذنى بحضنها ، أسمع نحيبها وهى تقول : " يجب أن تتعلم من إخوتك شيئًا "، أقول ببراءة لعينيها الرائعتين : " ما هو هذا الشىء؟" تأخذنى بحضنها وتقول باكية : " لا شىء ، أنت كما أنت لن تتغير ".

لا أدرى لماذا نفس النظرات الحانية كنت أشاهدها فى الأيام الأخيرة فى عين " غالية" ، بعد أن رضيت أن تكون علاقتى بها سرية خوفًا على منزلى من الهدم ، كانت تقابلنى دائمًا بوجه مبتهج ، وتجلس معى سعيدة ، طائرة من الفرح ، حين تودعنى كانت تبكى ، أسمع صوت أمى فى همسها ، وهى تقول : " لا يهمك شىء ، أنت كما أنت ، لن تتغير " .

حين شاهدتنى آخر مرة وأنا حائر بين الموت والحياة بعد انهيار المدينة وانتشار الغرباء ، قالت بغضب : " ماذا حدث لبراءتك ؟ ألا تسمع صوتك القاسى ، أنت أجف من لهيب الصحراء " ، تركتنى وسارت خائفة من عيونى البائسة ، لا أعرف كيف صمت لسانى البارد ، رغم أنى كنت أرحب بحضورها دائمًا ، حين غادرت فى المرة الأخيرة ، كنت أتمنى خروج صوتى ليمنعها من الرحيل ، كنت أتمنى أن تظل بجوارى وتبكى ، أو تأخذنى بحضنها ، وتطبطب علىَّ كما كانت تفعل أمى وتقول :" لا شىء يحزننى منك ، لا شىء" .

(٥)

لغة العيون تقضى على الباقى من روحى ، مشاعر متدفقة تموت وأنا أرى ضى عيونهم الأخير ، حين نظرت إلى وجه " أمينة" زوجتى وهى تصرخ لأرحمها ، وأغادر المنزل دون رجعة ، بحلقت بنن عيونى بغل وانفعال أدهشنى ، كانت عيونها تتضح بالشر ، رغم أنها استنجدت بالملائكة لأتركها وأبناءها فى أمان .

صرخت قائلة : " ابنى مريض ، وابنتى ستبور " ، فى نظرتها الأخيرة شاهدت الحنق يتطاير من روحها كالشرر داخل قلبى ، كأنها تنتقم من غريمها الذى حرمها بهجة الحياة وسرق عمرها دون أن تلحظ أنها تتقدم فى السن .

تركتها صامتًا وخرجت غير عابئ إلا بنظرات عيونها ، تخيلت أننى أسرق النور المشع من قلوبهم ، استعدت النظرات الأخيرة بعيونهم جميعًا ، فاندهشت لسطوى على وميض حياتهم ، أباغتهم ليهتاجوا ، ويصرخوا مرعوبين خائفين ، فأستمتع بنظرات الشر والقسوة وهم يتمنون ألا يشاهدوا هذا الوجه البارد الممزق مرة ثانية .

أقوم مفزوعًا من على المقهى ، أبحث عن ظل رجل أو امرأة يبادلنى نظرة امتنان واحدة ، لكن البشر الذين يملأون الشارع يخافون منى رغم أنهم أغراب لا يعرفوننى ، يبتعدون عنى ، رغم محاولاتى المستميتة بالاقتراب من الشرر المتطاير من عيونهم .

الأمهات يلاحقن أبناءهن فى الحوارى ، عيون الفتيات تهرب فى أصابع وأكف الصبيان ، الآباء يسرعون بأكياس الطعام نحو الشقق الضيقة ، كأنهم يحملون آخر الزاد لعائلاتهم المنسية .

مازلت أقف على ناصية الشارع أبحث عن مكان يؤوينى ، أعود للمجهول مرة أخرى متذكرًا جارى الشهم ، سأذهب إليه ليتوسط عند زوجتى لأعود إلى المنزل ، انطلقت عائدًا إلى الوراء ، تحاشيت المارة والمتزاحمين على أفران الخبز الأفرنجى ، انتظرت كثيرًا حتى جاءتنى هذه الفكرة الأخيرة، قلت لنفسى : " جارى وافى طيب وسيتفهم ظروفى ، ويقول لأمينة كلماته الطيبة بوجهه البشوش ليخرجنى من الأزمة التى لا أعرف سببها وأعود لغرفتى وسريرى لأتدفأ بالحب الذى يظلل أسرتى ".

أزعجنى وجه أحد المارة وهو يضحك ، كأنه يفهم ما يدور بعقلى ، سمعته يقول : " من يعد إلى الوراء يرَ كل شىء ، سيحس القلب والعيون الباكية " ، رد صاحبه عليه دون أن يرانى قائلاً :" من يمش إلى الأمام فسيمتلأ بالقلب الرقيق النابض " .

أسرعت الخطى بعيدًا عنهما محاولاً اللحاق بجارى قبل نزوله لصلاة العشاء ، قلت لنفسى بأسى : " من ينظر لعيونى يجد الأراضى البور والحب يتعانقان بعشق ، لا شىء سيمنع عينى من تلمس شعاع النور " ، فجأة انتابنى إحساس أن الشارع كله مبتهج، أنظر إلى وجوههم الضاحكة متناسيًا الاحتيال والخوف ومشاجرتهم الدامية المستمرة ، أقول لنفسى : " كل شىء قابل للتغير ، كل شىء جائز ، إلا الموت " ، لن يتمكنوا من خطفى ، سأرى عيون ابنى " أمجد" الليلة ، وتنتهى المشكلة ، ستغفر زوجتى الذنب الذى ارتكبته ، سأعتذر عنه ، لن أكرره مرة أخرى ، سأبكى على صدر " ريم" ابنتى وأطمئنها على حالها ، سأقول لها : " لا تقلقى سأعيش حتى أرى أبناءك فى منزلك سعداء بأمهم الرقيقة ."

كان البيت يقترب ، وأنا أحلم بحضن زوجتى ، وهى ترمقنى بغضب ، سيغفر قلبها الرقيق كعادته من أجل وقف الفضيحة بالشارع الذى يعلم أن زوجها نام يوم الجمعة حتى الظهيرة ، ونسى بخسة أن ينزل فى الصباح الباكر كعادته ليشترى الفطور ، ويجهزه قبل أن تصحو من نومها هى وأولادها .

ستتقبل " أمينة " عذرى لتدارى الفضيحة ، متمنية يقظتى المبكرة يوم الجمعة القادم كعادتى لتجهيز كل شىء .

شىء ما يدفع قدمى للتقدم ، أهرول كمن مسه جنى ، وصلت إلى مدخل الشارع ووقفت أمام منزلى ، مذهولاً من تجمع أصدقاء وزملاء العمل وجيرانى وأهلى ، كأنهم ينتظرون عودتى ، تجاهلونى ونظروا إلى بعضهم بغيظ ، لم أكن أدرى ماذا حدث ، لا يهمنى ، لم أسأل أحدًا ، لكنى شاهدت جارى " وافى" يتوسط الجمع ، دخلت مسرعًا وألقيت السلام ، لم يرد أحد ، فقلت بمواجهته : " عامل إيه يا جارى العزيز ؟ " نظر بغيظ ناحيتى قائلاً : " ابنك أمجد مات ".

شىء ما يخرج من بين أحشائى ويلقى بالوسخ على أرضية الشارع ، تصرخ زوجتى فى الجميع لأبتعد ، حاولت بعض النساء إسكاتها ، صرخت بصوت عالٍ مهددة بأكل كرشى إن لم

أغادر حالاً ، سحبنى جارى الطيب بعيدًا ، وقال : " البقية فى حياتك ، نحن قمنا بالواجب ، ابنك الآن راقد بالمدافن ، لا تقلق ، اتركهم بحالهم" .

رأيت عيون أخى وصديقى وزملائى بالعمل والجيران من بعيد يعزون زوجتى وابنتى ، وينظرون إلىَّ بغضب لأنى غيرت عاداتى وأغلقت تليفونى يوم أجازتى ، ونمت حتى الظهيرة ، غير عابئ بالعادة التى تربينا جميعًا عليها ، فانهار الكون ونزلت المصائب تتوالى على رأسى وختمتها بموت وحيدى المسكين " أمجد" الرقيق نسمة الهواء .

شىء ما يأخذ ما فى قلبى دون رأفة ، ويملؤه بالغضب والحزن، أُمْسِكُ برقبة أحد المارة صارخًا فى السماء ، وأُعدِّد بصوت عال ليعود ابنى ويقبل عذرى .

يسمعنى الشارع كله وأنا أذكره بليالى رمضان الجميلة ، حينما كنت أعود ليلة الوقفة ومعى الفانوس ، يأخذه منى وينزل إلى الشارع ، ويغرد وسط زملائه الأغنية المفضلة فى هذه الفترة فى كل قنوات التلفاز : " أهلاً شهر الصوم أهلاً " .

يسحب يدى أحد المارة ، ويطلب منى المشى معه بهدوء ، أثناء سيرنا ، حدثنى عن بلاوى الناس ، ليخفف عنى ، عند نهاية الشارع تركنى ، قائلاً : " لا تعد مرة أخرى إلى هنا" ، قلت : " لماذا ؟ ومن أنت؟ " رد بكبرياء وثقة : " لا يهم لكن الموت ينتظرك ، ابعد قدر الإمكان ، اختف ، وإلا طالك الهم وغرقت بالأسى ، حافظ على المتبقى بعقلك واهرب ، إذا عدت ، فلست مسئولاً عن جثتك التى سيأكلها الجميع " .

كان وجهه بشوشًا رغم التهديد ، الكلمات المرعبة التى ألقاها علىّ فتَّت قلبى ، أحسست بأنه ملاك طيب ، حضر ليؤنسنى ، لا يهم ، فمازلت حيًا ، لا يهم أنى منبوذ ، فمازلت أتنفس وأتحسس نور عيونهم ، لا يهم أن ابنى مات ، فعندى بنت جميلة لا يمكن أن تحقد علىَّ ، لا يهم أى شىء ، فسوف أقاوم كل ذلك وأعيدهم جميعًا ، ليتذكروا الأيام الجميلة التى عشناها ويغفروا أخطائى .

أحسست بنطق كلماتى الأخيرة ، كأنها خرجت للتحدى ، آمنت بأن وجودى مهم لأعيد الحب مرة أخرى للأغراب.

مشهد غامض غريب حدث وسط السوق دون دهشة أحد ، جارى " وافى" الرقيق يمسك سكينًا والدم يتناثر على وجهه وملابسه ، يطارد الجيران الذين مزقوا الملابس الداخلية لزوجته الطاهرة "وفية" .

أندهش وأجرى بعيدًا ، يفاجئنى السيد " نضال" بعيون مغلولة ، وهو يركب ظهور زملائه العمال بالمصنع ، مدعيًا أنه رئيس الأرزقية الذين يمتلئ بهم السوق ، يشق موس أحد العمال وجه زميلى " حسن" البشوش ، بعد ادعائه بأنه وحده الذى يحق له البيع والشراء بجوار رصيف المحطة .

أفاجأ بصديقى " مخلص" عاريًا رافعًا طبنجته بيديه ، مهددًا أبناء السوق التجارى بعدم التعدى على أملاك السيد " شريف" الذى قام ببيع المصنع لينافس التجار المكسب والغربة.

البيوت تلاطم بعضها ، وتتقاذف الطوب وزجاجات الكولا الفارغة من الشبابيك المفتوحة على مصراعيها ، الجميع يتراقص وسط المجزرة متباهيًا بانتصاره المجيد الذى سيعيد مفاتيح المدينة إلى قلبه المحترق .

هرولت باحثًا عن أثر لما كان بينهم من حب ودفء ، لكن الزجاج المتطاير من فوقى يخترق جسدى الهارب ، فأقرر دون تردد الاختفاء بعيدًا بمياه النهر التى تخلب روحى رائحته وألوانه .

أذهب على غير هَدْى للشط مرة أخرى ، كانت المعدية تعلن بداية رحلتها الأخيرة هذه الليلة إلى الجزيرة .

بدون إرادة وجدتنى أركب معهم ، أنذرنى المراكبى ، بأنه لن يعود مرة أخرى ، قلت : " سأنام عند أقاربى بالجزيرة " ، سألنى بسخرية : " من بيت مين سعادتك ؟" قلت بهدوء : " من بيت منصور" .

سار بعيدًا كأنه لم يسمعنى ، تركنى وحالى بعد أن أخذ الجنيه المعدنى ، وانطلق كقبطان متمرس ، دافعًا المجاديف وسط المياه ، مبتهجًا لرؤية أشجار الجزيرة ، معلنًا عودة الغائبين إلى منازلهم وأسرهم .

"الحياة"

(١)

مرة أخرى وحيدًا فى عالم غريب ، لم تطأ قدمى من قبل أرض الجزيرة ، على الرغم من مشاهدتها سنين طويلة من شاطئ مدينتنا التى تحولت بين عشية وضحاها إلى مزبلة .

الآن هنا ومن وسط النهر ، أرمق أنوارها البعيدة ، أسمع أصوات النساء والرجال الغرباء بالأسواق والميادين البعيدة ، تأتينى وتصيبنى بالضجيج ، ورغم الظلام الدامس ومياه النهر التى تفرقنى عنهم ، لكن وجوههم العابسة مازالت تطاردنى .

نزلت مسرعًا من المعدية ، تفرق كل الذين نزلوا معى فى مدقات طويلة منثورة وسط الزراعات إلى منازلهم ، مبتهجين بالأكياس البلاستيكية المملوءة بأنواع عجيبة من البضائع المتنوعة التى ظهرت عقب هجوم الأغراب فى يوم غير معلوم.

أسير وحدى أترقب الأنوار المنبثقة من بوابات البيوت المزروعة بين أشجار الجزيرة كأنها روحى ، ورغم الحياة التى تضج بين حوائطها ، فمازال الظلام ينهش قلبى ، أحس بأصدقائى وأهلى وجيرانى يهرولون ، لاهثين داخل أمعائى ودمائى ، مشاجرات تجرى داخل كبدى ، وصراعات لا تنتهى بالمحطات والمقاهى والمنازل والخيام تلوث دمائى.

بشر أغراب يدخلون وسط أحشائى ، يعيشون كأحياء وسط الحوارى التى تنسحب داخل روحى لتخلق عالمًا غريبًا ، لا أفهم كيف يستمر ويتدفق ، رغم انتقالى للجزيرة ومغادرتى كل مآسيهم؟!

أتحسس حشائش حديقة النهر وأتظلل بأشجار البرتقال والرمان ، وأسير بغير هدى على المدقات باحثًا عن المجهول . وجدت نفسى وسط حقل واسع وموحش يتوسطه منزل مهجور ، كأنه طاحونة ، قلت لنفسى : " مكان ملائم للنوم يا فؤاد" ، رغم الصقيع لكن الحائط المتهدم كان رحيمًا بعظامى ، منع البرد من الوصول إلى أطراف أصابعى ، تمددت ناظرًا إلى السماء ،

النجوم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، الباقى من القمر واضح بعد انقسامه على نفسه واختفاء أكثر من نصفه فى الظلام الذى ينتشر فى السماء.

النهر القريب يرسل بأمواجه المتحركة أصواتًا تدعو إلى الأمان رغم همس صراصير الليل ، رحت فى النوم العميق بجوار الحائط ورأيت النهر المملوء بالأبراص والثعابين والوسخ يسحبنى من خلف الحائط لأرتمى بين أمواجه ، كدت أغرق وسط ركام " الخرارة" ، أحاول الخروج ، تلتف حول جسدى ورقبتى الحيات ، أدفعها بكل قوة ، تلدغنى بأصابع يدى وبين أظافرى ، تنتشر السموم فى جسدى ، تدفعها روح مقاومة بعيدًا عن قلبى الذى تحول لقبضة ممزقة بالدم النازف الأسود ، أجرى وسط النهر الغارق فى بقايا المدينة التى تحولت هى الأخرى إلى بحر كبير تمتلئ شوارعه ومقاهيه وأسواقه بالوسخ.

الروائح النتنة تملأ السماء المظلمة التى انتشرت فيها الأحناش والصقور والحدايات ، الشبيهة بوجوه البشر ، كدت أراهم فوقى وتحتى ، أصدقائى وجيرانى وزوجتى وزملاء المصنع وأهلى ، كلهم هنا بالنهر الغارق فى المدينة ، يحاولون النجاة أو المشاركة بالموت ، لا يهمنى أن أتعرف على وجوههم ، يهمنى فقط الخروج مرة أخرى إلى شاطئ الجزيرة البعيد ، ارتعبت من نهشهم المتواصل لفؤادى ، أحس بأن قوتى خارت ، وأن جسدى مسموم .

فجأة ظهرت " غالية" كحمامة بعيدة ، تشير إلى روحى بارتداء طوق النجاة ، كنقطة بيضاء بعيدة أرشدتنى ، أحسست بها تساعدنى للمرور فوق الجثث الميتة التى تحمل سكاكين طويلة ذات سنون جارحة ، يُقطِّعون بها أجساد بعضهم فى غل وتشفٍّ ليس لهما نظير ، تمكنت " غالية" من سحبى من وسط النهر القذر الغارق إلى مكان آمن ، حين اقتربت من عينى شاهدت حائطًا ضخمًا يحول بين نهر الدم وقلبها.

اقتربت من عينى ، أشارت فى قلبى النابض على فتحة ضيقة ، كأمل للخروج والنجاة من الظلام ، عبرت أمامى بثقة متخطية الرعب ، رغم أن رجلاً أصلع ضخمًا يحمل سنجة كبيرة ولا تظهر عيونه ، كان يقف على بوابة الفتحة الضيقة ، لكنها مرت دون رهبة لتشجعنى على تخطى المستنقع .

رغم الرعب وجدت نفسى أعبر لشاطئ الجزيرة مرة أخرى ، ارتفع فى النهر الغارق بالمياه السوداء سورٌ عالٍ ليحمينى ، تيقنت أننى أصبحت بصفها ، ظهر الحائط بين نهر الدم وقلبها كدليل على صحة طريقى .

امتلأ شاطئ الجزيرة بمحلات لشوى الأسماك ، وضعت كراسى وترابيزات بجوار الشط ليجلس عليها الرواد ، أطلقت مداخنها رائحة السمك الطازج ، الشيء الغريب أن عيون الأسماك التى تتلظى على الفحم كانت كعيون أصدقائى وجيرانى ، رغم ذلك أرسلت "غالية" من بعيد إشارة لأنظر إلى شق القمر المضئ بين أقدامها الجميلة التى تدللت فى السماء ، حاولتْ أن تسحر روحى لأتجاوز الوسخ ، وأنظر إلى وجهها الناصع الضاحك وهى تجلس على شق القمر كطفلة تعبث فى النور.

استكملت السير على الأرض رغم الدم النازف من أنحاء جسدى ، استغربت لعدم اهتمام أىٍّ من المارة بشط الجزيرة أو أصحاب المحلات لمنظرى المرعب ، قابلنى أخى " عز" وهو يبكى باحثًا عن أبنائه وزوجته ، قال بغضب حين شاهدنى : " أمازلت حيًا يا ديل الكلب ؟! "

الشيء الغريب أننى تحسست ذيلى وهو يتحرك يمينًا وشمالاً ككلب ، حين يشاهد صاحبه ، بصق فى وجهى بغل ، واستكمل نداءه الغريب " : عيال تايهة يا ولاد الحلال ، اللى يلاقيهم يوديهم مقهى المدينة بجوار مسجد المحطة! "

رغم دمائى النازفة ، وعيونى الباكية ، وآثار نهش الموت على جسدى ، لم يهتم أخى بأن يقول لى :" ألف حمد الله على السلامة يا خويا " ، شاهدته عاريًا تمامًا ، ولم أتمكن من تغطية أردافه .

فوجئت بجارى " وافى" يبكى لفقده "وفية" التى حملت الحب فى قلبها وغادرته دون علامة ، ظل يعدد وينظر إلى وجوه البشر الناجين من المجزرة بغل ، حين رآنى جرى ورائى بسكينه محاولاً قتلى .

حتى إن السيد " نضال" والسيد " شريف" اللذين اتفقا على اجتياح السوق التجارى بالبضاعة وتشغيل العمال العاطلين ، فوجئت بهما يمسكان بخناق بعضهما متجاهلين الدم

النازف من وجوه شركائهم بالسوق ، عندما لمحنى السيد " نضال" ترك رقبة السيد " شريف" وقال بغل : " أخيرًا سوف نلتهم جثتك يا ديل الكلب!"

الغريب أن "مخلص" صديقى كان يرفع جثة ابنه " هانى" باكيًا والدم ينزف من رأس ابنه البرىء وأنفه ، بينما سارت " هنية" زوجته عارية فى ظله وهى تضاحك المارة .

(٢)

حين شاهدت الكلاب الضالة تلتف حولى بجوار حائط الطاحونة ، سعدت وابتهجت لأننى مازلت حيًا ، ورغم حزنى على الأسى الذى طال روحى بالليلة الماضية ، لكن نور الفجر ورائحة الزرع وندى الصبح الذى بلل ملابسى وأطرافى كان يشجينى ، تحسست أطراف أصابعى وعيونى ، وقلت لنفسى : " كان حلمًا كئيبًا ولن يعود".

الأهم من مشاهدتهم جميعًا والذعر من ليلة مرعبة ، أننى سرت حول المنزل ، وفوجئت بأحد الأغراب يقف بغنمه وجواميسه وسط باحته المهجورة ، وسألنى بوجهه المبتسم : "من أنت؟" قلت بتلقائية : " فؤاد ضرغام " ، سألنى بعيون مملوءة عذوبة : " ومنين يا فؤاد؟" قلت بأسى : " من المدينة " ، طبطب علىَّ قائلاً : " احنا أهلك وناسك يا ابنى " .

أحضر صبى صغير كوبًا من اللبن ، وناوله للشيخ ليباركه ، وضعه على فمى ، قائلاً بتوسل : " اشرب لبن الخراف فيه شفاء وأمل ورضا " ، ارتشفت الحليب مذهولاً من حاسة التذوق التى عادت لفمى .

مسح على رأسى قائلاً : " كيف وصلت إلى هنا ؟" قلت : " ركبت النهر ، وقادنى المراكبى للجزيرة " ، سألنى وهو يجز صوف إحدى غنماته : " قلبك فين؟ " قلت : " تركته بعيون " غالية" ، استكمل بحب : " كانت غالية زوجتى وأختى ، ومع ذلك حرمنى الدهر من عيونها البريئة ، لكنى أحسها بعيون أغنامى " ، مسح ظهر الحمل الذى ينام أمامه فى رقة ، ورأيت دموعه تتسرب وهو ينظر إلى عيونى بود .

نادى على الفتى الذى يلازمه ويهش بعصاه على أغنامه قائلاً : " يا بلال احضر حقيبتى " ، فتحها وأخرج منها قطعة حجر متعرجة الشكل والألوان وقال : " تحسسها كأنها روحك " ، وضعتها بكفى ، انتفضت كأننى أحترق ، فقال : " تماسك ولا تتركها أبدًا " .

الارتعاشات تعاودنى ، الدموع تخرج من عينى كنهر متدفق هادر ، قلبى ينتفض بلا توقف ، أمرنى بإغلاق عينى وسألنى : " ماذا تشاهد ؟ " رددت بأسى : " غالية تقف على الشط وتنادينى " ، قال : " اذهب إليها ، قلت : " لا أستطيع ، النهر يمتلئ بالثعابين والحيات والحرائق والسموم " ، قال : " يمكنك أن تطير وتصل إليها " ، كانت " غالية" على شاطئ المدينة تبكى

عارية حليقة الرأس وتفتح ذراعيها لتستقبلنى ، لكنَّ ثعبانًا متوحشًا ضخمًا ، اقترب منى وأنا مغمض العين ، ولدغنى بخصيتى ، فصرخت تاركًا قطعة الحجر .

أخذنى العجوز بحضنه ، ليطفئ النار التى اشتعلت بروحى ، طهّر جسدى من السموم ، ذبت فى روحه الدافئة ، أدخلنى جنته فى لحظة مباغتة ، لأمرَّ بسوادى من وسط نوره ، الذى بدأ يظهر أمامى مرة أخرى كنقطة بعيدة فى الفضاء بجوار أقدام " غالية" المتدلية من شق القمر ، بكيت بصوت عالٍ لتنزل من على شق القمر وتغيثنى ، العنيدة كانت تضحك وتقول : " اطلع أنت لتعبث بضفائر شعرى المحلولة ".

قال الشيخ العجوز :" اقترب ولا تخف ، ناولنى مسحوقًا أبيض قائلاً :"ادعكه برأسك" ، فتيبس شعر رأسى .

أحسست بأننى أرتدى طاقية صلبة لونها غريب ، كادت تخلع شعرى ، قال بعد أن نظر كثيرًا بعينى : " ما أروعك !"

لم أفهم شيئًا ، دعانى للنزول لمياه النهر التى تحيط الجزيرة ، وقال : " لا تخف ، عصاى تحميك وتلتهم الأشرار الذين يلوثون أرواحنا " ، دفعنى بعصاه بين صدرى ، فاتجهت للمياه ، وبدون قرار ، قفزت فى النهر الذى التهم روحى ، قال العجوز من بعيد : " تحسس رأسك يا فؤاد " ، حين وضعت يدى على الفروة ، سالت دماء سوداء ، غطست برأسى تحت الماء ، فجاءنى الشيطان قائلاً: " يا جبان ، يمكنك الآن الغرق ، وإعلان نهايتك" ، لكن عصا الشيخ لكزتنى من بعيد ، فرفعت رأسى بعد أن كادت أنفاسى تختنق .

لأول مرة فى حياتى أحس ببهجة الإقدام على الانتحار ، شاهدت العجوز وخرافه وصبيه يغادرون الطاحونة دون وداع ، رغم حزنى على رحيلهم ، لكننى خرجت من النهر عاريًا ، نبح كلب ضال بجوارى دون سبب ، فعدت ليقظتى مدهوشًا من خيالى الضائع ، وجدت سكينًا حادًا بجوارى ، دفنته بجوار الحائط علَّه يحمينى يومًا ما ، خلعت ملابسى الغارقة ، وأصبحت عاريًا تمامًا ، نشرتها على الحائط وانتظرت بجوار النهر لتجف ، حين مرت علىَّ بعض النسوة والأطفال ، جريت وسط الحقل بجوار الطاحونة ، فصرخت الفتيات وهن يجرين : "عفريت ، عفريت " .

(٣)

عشت هاربًا وسط الحقول ، بعد أن سرق الأطفال ملابسى ، ورحيل العجوز من الطاحونة إلى حقول أخرى ليرعى مع غنمه بمساعدة الصبى الذى يلازمه كطيفه.

أتنقل بين المزارع كشبح ، لا تغطى جسدى أية ملابس ، كلما شاهدنى أحد المارة من بعيد، جرى مهرولاً نحو المنازل أو الطرق الواسعة صارخًا : "شبح المدينة يعود " ، أتعبنى التنقل بين حقول الذرة وعباد الشمس ، عدت للطاحونة المهجورة ، أتلمس الغطاء من جدرانها المهدومة ، وجدت عدة أجولة قديمة ، مزعتها بأسنانى لألف بها جسدى ، أعجبنى شكلى وأنا ملفوف ببقايا أجولة الدقيق والسماد .

تمددت سعيدًا بغطائى ، رغم بقايا السماد التى تأكل جلدى ، لكن غطاء عورات الجسد شيء جيد ، خاصة حينما تواجه عيون الناس فى الطرقات ، أو داخل المقاهى والأسواق والبيوت وأماكن العمل .

تمددت بجوار الحائط مرة أخرى ، أرسلت الشمس من فوقى أشعتها الحارقة ، فذابت بقايا الأجولة فى جسدى .

غفلت بعينى لأهرب من جحيم النهار الذى بدا أنه يقترب من منتصفه ، ورغم الجسد الملتهب رحت فى النوم العميق .

عادت وجوه جيرانى وأصدقائى وإخوتى وزملاء العمل مرة أخرى وسط الميدان الذى يتوسط قلب المدينة ، يرفعون فى وجوه بعضهم السنج والمطاوى ، حين نظرت بوجوههم المشقوقة رأونى ، جروا جميعًا ورائى ، أطلقوا النار من مسدسات طويلة كوجوههم المتغيرة ، يتقزمون فجأة أمامى ، ثم تستطيل وجوههم لتصبح أكبر حجمًا من أجسادهم ، كانوا يلهثون ورائى ، وأنا أحاول فهم التغيير السريع فى ملامحهم .

دون جدوى ، يقترب قلب المدينة منى ، ثم يطير بهم جميعًا فوق رأسى ، أحس بجسدى يتآكل من بقايا السماد والدقيق ، فأصرخ ليبعدوا عنى ، أحس بنفسى هاربًا وسط أراض واسعة

مزروعة بالحقول ، أشاهد أختى " عزيزة" وأخى " عز " ، وأبى "الطيب" ، ينادون علىَّ ويقولون : " نحن أهلك ، عُدْ إلينا يا فؤاد ، لا تخف ، احنا ناسك يا وله " .

بكت أمى "روعة" تتوسلنى قائلة: " أرجوك عد ، حتى يمكننى النوم "، نظرت إليها وأحسست بروحها تحيطنى ، لكن الثعابين عادت مرة أخرى ، لتملأ أسواق المدينة وتمص دم الصبيان والفتيات ، وجدت نفسى أقف بمحطة القطار ، وأنظر إلى المبانى التى كانت يومًا ما تنشر مداخلها روائح الزهور والريحان والنعناع .

فجأة جاء السيد " نضال" و" حسن" وزملاء المصنع يطالبوننى بالرحيل من المحطة ، وإلا قتلنى السيد " شريف" صاحب المصنع ، لتحريضى للعمال على الإضراب ، جرونى لبقايا المصنع الذى تحول إلى خرابة ، امتلأت عنابره بالعنكبوت ، والحشرات ، والثعابين، واحترقت أشجار الصفصاف التى كانت تملأ مداخله .

الشىء الغريب أن الملابس التى كان ينتجها المصنع ، حرقها السيد " شريف" مع الآلات الكثيرة ، ليريح نفسه من آلام الصناعة ويتفرغ للتجارة ، قالوا بأسى : " شارك أبناء السوق التجارى ، وتحولنا جميعًا لخدامين بالمحلات "

أخذونى بغضب وكأننى المتسبب فى كل ما جرى ، ليرونى الخراب الذى آلت إليه المدينة ، التقيت " بمخلص" صديقى ، وجارى " وافى" ، حاملين السكاكين والسنج فى مواجهة بعضهما ، بعد اتهام "مخلص" " لوافى" بأنه يعاشر زوجته " هنية " سرًا بعد سفره للمدن البعيدة ليحضر الزاد والزواد ، نعته أمامنا بالعاقر زوج المومس "وفية" ، شد زوجته من شعرها ، قائلاً لها : "دائمًا تعاشرين أصدقائى يا عاهرة "، حين شاهدنى قال بأسى : " حتى ديل الكلب لم ينجُ من لوعك يا فاجرة ".

جاءت " غالية" مرة أخرى إلى المحطة وخطفتنى من وسطهم ، سحبتنى للشوارع التى تتوسط البلدة ، كان المشهد مهيبًا ، أنقاضًا فوق أنقاض ، خلف العمائر العالية.

اختفى البشر من بيوت المدينة ، ولم يعد إلا الدخان المتصاعد من ركامها المرتفع ، تحولت المنازل إلى أضرحة ، سرنا وسط الصمت ، نبحث عن أثر لنبات أو قط أو كلب أو حتى حشرة ، لنتأكد من وجود الحياة ، عبثًا كان بحثنا عن الوجوه الإنسانية ، كالطيف الغائب أو الحلم الميت .

اجتزنا الشوارع والمنازل والمقابر ، حتى وصلنا إلى نهاية المدينة ، شاهدنا بحرًا كبيرًا مختلفًا عن مجرى النهر الضيق ، كوحش كان ينتظر خروجنا ليلتهمنا ، قالت " غالية" : "انزل معى لتتطهر " ، تراجعت خائفًا ، نادت علىَّ كثيرًا ، أمسكت كعكة من الخبز بيدها ، وحاولت أن تذيقنى طعمها ، كانت تتودد لأقضم منها قضمة واحدة ، كلما اقتربت خطوة منها ، كانت تبعد خطوتين ناحية مياه البحر الهادرة ، وصلت إلى الشط أخيرًا بسبب خديعتها ، ورغبتى العارمة فى تذوق الكعكة التى تمسكها بأطراف أصابعها ، كأننى كلب جائع تنادى عليه بلقمة لتغذى رغبته الجامحة ، المهم أننى وصلت بمحاذاة شط البحر ، نظرت ورائى ، كانت أشلاء المدينة وبقاياها شاهدتين على عجزى ، وتصرخ فى صمت لأصحو من نومى ، أحسست بالجدران الباقية تتهدم فوق رأسى ، كأن قنابل وألغامًا مخيفة قررت تفجير الباقى من الحوائط دون رحمة أو شفقة .

لكزتنى عصا الشيخ فجأة ، فصحوت من نومى على وجهه البشوش وهو يقول : " أحضرنا لك ملابس وطعامًا يا فؤاد ، هيا انزل النهر واغتسل وعد إلينا بجوار الضريح " ، أشار إلى مبنى الطاحونة المتهدم القديم وسط الزراعات ، مستطردًا : " نعم إنه ضريح لسيدى ذنوب " ، قلت لنفسى مبتهجًا بيقظتى العائدة : " ماذا فعل ذنوب ليحكموا عليه بالدفن وسط الأحياء ؟! "

(٤)

ارتديت ملابسى وجلست بجواره سعيدًا ، لأول مرة منذ اجتياح الأغراب للمدينة تعاودنى تلك المشاعر ، أحس الشيخ ببهجتى ، فطلب منى المبيت بمنزله ، وترك الضريح الذى يتبارك به أهل الجزيرة الطيبون .

كانت الأشجار الوارفة التى تغطى الضريح من كل جانب ملهمة وبراقة ، ملأ ظلالها الدامس الأرض ، لتنفصل عن الأراضى المحروقة التى تنتقم منها الشمس ، أجلس مبتهجًا تحت أوراق الشجر المتنوعة ، كأنى بحديقة قلب المدينة المفقود.

لأول مرة منذ هجران أحبابى ، تلفحنى روائح المزروعات المحيطة ، ونسيم مياه النهر يصل إلى قلبى ، ماذا حدث ؟ سألت الشيخ العجوز ، رد بحب : " لا شىء" ، تذكرت خطاب " غالية " الذى أمهرته بتوقيع غريب يشبه نفس الحروف ، لا شىء !

أطلق الفتى الذى يلازم العجوز صفارته ، ليتجمع الغنم حوله مقررين الرحيل ، تحسس العجوز كتفى ، وقفز على حمارته البيضاء ، وناولنى عصا وقال : " هش بها علىَّ حملانى " ، سرنا كالسرب ، يتقدمنا الفتى والأغنام تسير من خلفه ، وأنا والعجوز نسير فى المؤخرة .

سمعت غناء الفتى وهو يقول : " ياليل يا عين ، يا أبو الغلابة " ، رد العجوز : " طلعت فوق الشجر كان القمر عالى " ، استكمل الفتى : " لقيت جنية عصية واقفة بتنده على ، لاغتها ، ولبست انا موالى ".

انسحب الغناء لقلبى ، فأحسست بتغريد الحمام واليمام والعصافير من فوقى ، فقلت بطريقة أذهلت الشيخ ، كردٍّ على شَجَن الفتى المتقدم : " والغالية غالية فوق شواشى النخل عالية " .

أقترب باب البيت المفتوح من جمعنا ، دخل الفتى متجاهلاً صراخ الصبية والنسوة اللائى أحطن به فى حب ، انطلق بالأغنام لقلب الحظيرة ، نزل الشيخ من فوق حمارته التى وقفت وحدها بجوار حجرة مرتفعة عن الأرض أمام منزله ، المساند رصت فوق الحصيرة النظيفة على المصطبة ليجلس العجوز عليها بعد نهار طويل ، أعادت وجوه الصبايا والنساء الروح الي قلبى

، أحسست بنظافة المدينة التى كانت قبل المجزرة تملأ حياتى ، قال الرجل لجمع من الرجال والنسوة ليعرفهم علىَّ : " فؤاد ضيفنا النهارده يا ولاد ، كل أوامره مجابة ، حتى النوم مع النساء والفتيات مباح ، ده من طرف الغالية ".

نظرت إلى الفتيات الفاتنات ، والنساء الرائعات بأجسادهن الناضرة ، فارتعش قلبى ، لأول مرة منذ هجوم الأغراب تعاودنى غريزة الحب مرة أخرى ، فى لحظة مباغتة ينتفض قلبى ويقشعر بَدَنِى دون أن يلاحظ أحد دموعى .

وضعوا أمام العجوز على المصطبة الواسعة طبلية كبيرة ، رصوا فوقها طعامًا مختلفًا ، اشترك اللبن والخضر فى كل أصنافه .

جلسوا عشرات حول الطبلية ، وتناولوا بحب ما لذ وطاب من الخس والفجل والجرجير والمش والجبن والقشدة والخبز ، أكلت بنهم غريب ، كأنه آخر زادى ، كانوا يضاحكوننى ، ويرددون اسمى " فؤاد " ، ويتحسسون جسدى كأننى ملاك أو غريب ، ويضحكون وكأننى شىء نفيس غالٍ .

حاولت فهم معنى أسمائهم أو أسماء مزروعاتهم أو حيواناتهم ، ضحكوا بجنون ولم يفهموا قصدى ، عادوا يتحسسون ببلاهة جسدى ، ويقولون لأنفسهم بصوت مسموع : "فؤاد المدينة ".

زار العجوز جمعًا من الناس يرتدون الطواقى الصوف البنية فوق رؤوسهم ، وبعد أن رموا السلام ، جلسوا حوله ينتظرون ردًا ، لم يتكلم فى البداية ، لكنه انتظر حتى شربوا الشاى ودخنوا المعسل .

أحضرت إحدى الفتيات صينية أخرى مملوءة بالخضر والفاكهة ، لم يتكلم حتى أكلوا وامتلأوا ، فقال قاطعًا الصمت : " وبعدين يا ولاد هتحلوا المشكلة اللى ما بينكم ولا هتعيشوا زى ناس المدينة أغراب ؟" نظروا إلى وجوه بعضهم ، ثم نظروا إليه ولم يردوا .

فاستكمل : " أنتم تعرفون أنى عشت خارج الجزيرة سنين طويلة ، عايشت كل أنواع البشر ومع ذلك لم أَمِل قط ناحية الشر ، من يرغب فى المكسب دائمًا يخسر نفسه ، لا يمكن أن تكسب السلام ، دون أن تشرخ الدنيا روحك ".

قال بعضهم بعد صمت طويل : " أى عاقل لا يمكن أن يرضى بحكمك القاسى؟ لكن إذا كنا لا نستطيع أن ننزع الشر من نفوسنا ، فماذا نفعل ؟ "

رد العجوز بقوة وهو يناول الرجل الذى تجرأ وتحدث سكينًا طويلاً ، قائلاً :" اقتله لكى يرتاح ضميرك ، مزع كرشه أمامنا حتى تبتهج روحك ، هيا يا صفوان ، لا تتردد ، فإذا لم تقم الآن أمامنا بأخذ ثأرك من أخيك ، وتفتح كرشه ، وتلتهم كبده ، فسوف تعيش الباقى من عمرك ضعيفًا مكسور الجناحين ".

الجميع صمت ، "وصفوان" يتناول السكين من العجوز ، وينظر بلحظة فاصلة إلى عيون أخيه ، قبل أن يقرر رى الحقد الذى يملؤه .

صرخت الحملان والبط والزرازير داخل الحظيرة ، الرياح العاتية التى أتت من المدينة خفتت بعد مرورها على مياه النيل العذبة .

قال صفوان قاطعًا الصمت : "ربما أنجح فى يوم ما بقتله ، لكن الآن لا أستطيع ، لا أستطيع ".

رد العجوز قائلاً " لصفوان" بعد أن أخذ السكين من يديه : " تصرفت كرجل كريم ، تستحق الاعتذار " ، وطلب من أخيه الذى يشبهه ولم ينطق، أن يبوس رأسه وقدمه وحذاءه ، ويطلب المغفرة ، تحرك الرجل الحزين ، وحضن أخاه باكيًا ، قائلاً بصوت مسموع : " حقك علىَّ يا خويا ، أبدًا لن أفعلها ، أبدًا لن أعاود خطئى ، اغفر لى يا شهم " ، سمعنا أصوات مياه النهر ترتفع ، الجميع دخل فى نوبة بكاء عميقة ، لم يفهم أحد سببها .

قال العجوز : " الحب نعمة ونجاة يجب أن نحيا جميعًا لأجله ، لا يمكن أبدًا للشر أن يكون مبررًا للحياة ، ومع ذلك سيظل على جبين بعضنا كعلامة تدل على غربتنا ، الجميع

يمكنهم إذا رغبوا أن يتجاهلوا العلامة التى تميز بعضنا ، ويعيشوا بسلام ، راضين بالنعم الكثيرة التى تملأ قلوبنا ".

واستكمل وسط صمت الجميع! نحن نرى ما نرغب فى رؤيته ، هدفنا ووسيلتنا وحياتنا ، إذا حادت روحك عن الحب ضاع كل شىء " ، وأشار بزهو ناحيتى ، وقال " فؤاد" ابن المدينة التى على الشاطئ الآخر ، لم يتحمل قلبه الطيب الشر ، فعاد إلينا دون إرادته ؛ لأن روحه مازالت حية وقلبه لم يمت بعد ".

" لا يمكن أبدًا أن تحقق الحب وأنت تهدم البيوت ، وتزرع بدلاً منها الشوك والشك والغربة ، يمكن أن تهدم بعض البيوت بشرط واحد هو زراعة الزهور والفل والياسمين على أنقاضها ".

الجميع يسمع كأنه بحضرة نبى يقول وصاياه الأخيرة ، عادت إحدى الفتيات بأكواب الشاى بعد استئذان الشيخ صحبتهم ، مقررًا النوم وسط جمعهم .

تحدثوا فى أمور الزرع والحيوانات والسماء والأرض والمياه ، ضحكوا على أنفسهم ، وعلى أطفالهم ونسائهم ، نام بعضهم بجوار العجوز فى سلام ، وقام آخرون للحاق بمنازلهم وأسرتهم الدافئة ، حدثونى كضيف عن الجزيرة ، كانوا يتندرون على ملمس أصابعى الناعمة ، ويتحسسون جسدى بحب ويضحكون ويرددون بعذوبة اسمى : " فؤاد ، فؤاد المدينة "

(٥)

وجدت نفسى أتمدد بجوارهم دون حرج ، نظرت إلى السماء بتعجب ، وقلت لنفسى : " نفس السماء التى تظلل المدينة ، والأسواق الغارقة " ، ما الفارق ؟ الفارق هنا ، تحسست روحى وصدرى ، فامتلأت بالدفء المشع من شخير النائمين المتنوع ، كأنهم يردون على بعضهم ، ويشكلون لحنًا غريبًا ، شجيًا دافئًا ، لم أسمعه أو أحسه حتى أيام المدينة الرائعة وزهور والدى الطيب .

الأحلام التى تأتى بنومهم ، أتحسسها ، وهم يتحدثون عن مواشيهم أو مع جيرانهم ، كأنهم أحياء يقظون ، لم تطل روحهم الأسى ، لم يضطروا للرحيل ، لم يدخلوا صراعًا حتى النهاية ، دائمًا يوجد عجوز ، يضع لمآسيهم نهاية طيبة ، يرتضيها الجميع بصفو نية ، وينام المتصارعون على حصيرة واحدة ، ويشخرون كأنهم يغردون فى سرب ، هدفه الوحيد النجاة.

أنها روح الحياة التى نفقدها ثم نحلم بإعادتها سليمة ، وكأن أحدًا غيرنا هو من سعى بكل قوته لنهشها ؟ ونتساءل فى النهاية عن مصيرنا المظلم الذى صنعنه أيدينا .

سألت نفسى والدنيا يتخللها صوت سكون الليل : " هل أنا فؤاد المدينة أم فؤاد ضرغام ؟ " مرة ثانية تأتينى الأسواق ، وخيام الأغراب وهى تقتحم قلب المدينة النابض ، لكن العجيب أننى لاحظت أن عيون الغزاة كانت حزينة ، ومع ذلك كانوا يضحكون ويبتهجون .

جاءتنى على غرة إحدى الفتيات العاريات أيام الغزو الأول ، أمسكت صورة جميلة لامرأة تشبه " غالية " فى روعتها ، علقتها بمدخل خيمتها ، وكتبت تحتها " أجساد للبيع" .

اقتربت منها ، فقالت ضاحكة : " تحسس نهدى ، تحسس فرجى ، أنا امرأة حقيقية ، بينما الصورة لأمى ، لا تخف ، ادخل الخيمة ، وسأجعل منك رجلاً حقيقيًا ، لن تدفع كثيرًا ، ادخل فلن تخسر شيئًا " .

رغم السماء الساطعة فوقى وشق القمر الذى تتدلى منه أقدام " غالية" وهى ترمقنى وتضحك ، وتشير بأصابعها لألحق بها وأعانقها فوق سطح القمر المنير ، لكن ترددى الدائم ، جعلنى

أخسرها بالنهاية ، وجعلها بالسماء على شق القمر وخسفنى بالأرض وسط جزيرة غريبة أتمدد وسط بشر لم أعرفهم من قبل .

لكزتنى عصا ناعمة على ظهرى ، وسمعت صوت العجوز يقول بطيبة : " نم يا فؤاد ، ارتاح شوية يابني"، أغلقت عينى ، فانسحب النوم العميق مرة أخرى لروحى ، وجدت نفسى محبوسًا داخل بيضة ، أحاول برأسى أن أخرج ، لكن جدار البيضة يرفض أن ينشرخ ، البيضة مملوءة بسائل أسود مميت ، أكاد أختنق رغم البياض الذى أتلمسه بروحى ، خيوط كثيرة ترتبط بجسدى وتحيطنى من كل اتجاه ، وكأنها حبال المشيمة التى تظل عالقة بالمولود حتى تقطعها الداية ، يعوق السواد والحبال الكثيرة محاولاتى بالخروج .

أحس بالدم الذى يحيطنى داخل البيضة كبراز ، شىء مفزع أن تشم هذه الرائحة المميتة ، وتعجز عن الخروج ، أحاول من جديد نهشها بأظافرى وتكسير جدارها ، فينزف على رأسى مخاط أسود قاتل يكاد يعمى عينى .

أستكمل بجهد رهيب محاولاتى وأقول لنفسى: " من العار شم كل هذه الروائح ولا تقاوم ، ولا تسعى للخروج وتحطم الجدران ، على الأقل يجب إعادة المحاولة حتى يستمر حلمك فى رؤية العالم خارج مجالك القذر ، يمكنك تشمم هواء نظيف ، أنت تحسه بين الزهور والأشجار الوارفة خارج جدران البيضة " ، ظهرت نقطة بيضاء غامضة فوق رأسي وتمكنت فى النهاية من خرم جدران البيضة الصلبة ، وظهر ضوء صغير يدل على النور الذى بدأ يتسرب رويدًا رويدًا إلى عقلى وقلبى .

أشاهده بعينى ، أتلمسه بروحى ، فأعاود من جديد محاولاتى ، لتوسيع الخرم كى أتمكن من الخروج.

تتقطع بعض الخيوط التى تربطنى بجدران البيضة ، فأحس بنفسى خفيفًا ، كأننى طائر ، تطاردنى الوجوه التى أعرفها داخل السواد المميت ، تحاول أن تجذبنى لأسفل ، كانت الوجوه حزينة وخائفة عليَّ من النور ، لكنى سأفلق الظلام لا محال ، لا يهم الثمن ، فيجب رؤية النور المنطلق خارج البيضة .

حاولت الخروج برأسى من الخرم الضيق ، عم الظلام داخل محيطنا ، لغلقى المنفذ الوحيد لشعاع النور ، تنحيت برأسى جانبًا ليمر بعض الضوء مرة أخرى ، مخترقًا الرائحة المميتة ليظل الجميع أحياء .

اتسعت الفتحة بفعل محاولاتى المستميتة ودأبى على خرقها ، كانت ضربتى الأخيرة قوية ، سمع الجميع صوت انفجارها ، هدمت جزءًا كبيرًا من قشرة البيضة الصلدة ، واندفع النور لداخلها ودفعنى للطيران ، أحسست بأجنحتى ترفرف ، فخرجت للفضاء الواسع ، لم تكن هناك ذاكرة ولا أصدقاء ولا زملاء عمل ولا جيران ولا حتى أهل ، فقط أنا طائر بالفضاء ، لا توجد أرض ، أو منازل ، أو مصانع ، أو أسواق ، فقط " فؤاد ضرغام" عائم وسط هواء نظيف .

عاودنى إحساس بالذنب ، إذ كيف سأعيش وحدى بهذا الفضاء وأترك الجميع عاجزًا عن شم روائح البراح ؟ رجعت بإرادتى إلى داخل البيضة مرة أخرى ، ماسكًا بيدى عصا سحرية على شكل قلب ، تيقنت من كونها عصا العجوز .

خضت معركة ضخمة بقلبى ، لأخلص البشر المحبوسين داخل البيضة من الأسر ، شاهدتهم جميعًا ، أمى روعة ، وأبى الطيب ، وجارى " وافى" وزوجته "وفية" ، صديقى " مخلص" ، وزوجته " هنية" وابنهما الرقيق " هانى" ، وابنتى " ريم" ، و" أمجد" صغيرى ، وزوجتى " أمينة" ، وصاحب العمل السيد " شريف" ، ورئيس العمال السيد " نضال" ، و" حسن" صديقى وزميلى بالمكتب ، حتى أخى " عز" وأختى " عزيزة" ، تطهرا وخرجا معى للفضاء ، تمكنَّا جميعا – ونحن نصرخ فى الموت بقوة لمواجهة السواد – من هدم الجدران القاسية للبيضة التى تشبه الكرة ؟

لكننى الوحيد الذى صارت له أجنحة ، اندهشوا ونسوا اسمى كرمز لزهرة الفل ، ونسوا نعتى بذيل الكلب وفردة الجزمة ، نادوا جميعًا على طائرهم الجميل : " فؤاد ، فؤاد المدينة".

سألتهم بحب : " أين غالية؟ " اندهشوا لذاكرتى القوية ، فسألونى بفضول قائلين: " ماذا تمثل لك ؟ " قلت بتلقائية : " كل شىء " ، قالوا : " ألم تصلك رسالتها؟ " قلت : " تلقيتها ولم أرد" .

عاودت سؤالى : " أين غالية؟ " فرد " صفوان" ابن الجزيرة :" يمكنك أن تنتهى منها الآن "، ناولنى سكينًا وقال : " لك أجنحة ويمكنك أن تذهب إليها على شق القمر وتقتلها وتعود إلينا فى سلام ".

رد العجوز: " شق القمر لا يوجد فيه إلا الحب " ، لكزنى بعصاه لأصحو من أحلامى كى أتناول فطورى ، وأذهب معهم للسعى على شاطئ النهر لجلب الخير والنماء لحملانه ، كانت روحى صافية ، تحسست ضلوعى لأتأكد من أجنحتى ، ضحك العجوز عن آخره ، وقال : " الطيور والفراشات فقط هى من تصعد إلى السماء وتطير " ، تساءلت وحدى فى صمت : " أية بهجة وسعادة تدخل روح الإنسان عندما يصحو من النوم ليُفاجأ بأفكار غيره تروى روحه وتشفيها بروائح البهجة؟ "

اغتسلت بالنهر ، وارتديت ملابسى البيضاء ، وعدت من جديد " فؤاد ضرغام" .

اقتربت من الشيخ لأقبل رأسه ، أخذنى بحضنه باكيًا ، وقال : " اذهب ولا تخش شيئًا ، كلنا أغراب أولاد مدينة ".

سرت وحدى فى رحلة العودة ، كانت مياه النهر تلقى بألوانها الزرقاء على روحى ، طار اليمام والحمام مبتهجًا فوق رأسى ، أخيرًا وصلت إلى المعدية التى ستقلنى مرة أخرى للمدينة.

امتلأت بالبشر الأغراب ، تحسست وجهى لأتأكد من ملامحى ، كانوا جميعًا يشبهوننى ، قلت لنفسى : " لقد تحولت وأصبحت مثلهم يا فؤاد" .

حين اقتربت المعدية من شط المدينة ، لمحتها تقف هناك ممشوقة القوام برأسها الحليق ، كانت تنظر إلى عيونى ، وتلمح بهجتى طائرة من الفرح ، كان شعرها النابت جميلاً ، وبلوزتها البيضاء المفتوحة حتى قلبها تظهرها كحورية ، تحسست بقلبى زهور الفل التى تخبئها بين ضلوعها ، وصرخت من بعيد لتعيدنى من الجزيرة : " فؤاد يا فؤاد مازال بالمدينة ورد وحب" .

سمعت صوتها ، أحسست برحيقها ، خفف المركب سرعته ، طلبت من المراكبى أن يتقدم للشاطئ ، نظر باندهاش ناحية عيونى قائلاً : " اصبر شوية يا عم فؤاد " ، لم أتمكن من

الانتظار ، أردت الدخول بحضن حبيبتى ، ألقيت بنفسى فى النهر لأستكمل المسافة الباقية بأجنحتى التى تضرب بقوة فى المياه ، شاهدتهم جميعًا على الشاطئ ينتظرون عودتى ، كانوا يندهشون من إصرارى وقدرتى على العودة مرة أخرى ، لكن " غالية" الوحيدة التى تعلم السر كانت تصرخ كالطفلة كأننى فى سباق مع الحياة ، هتافاتٌ وصراخات عديدة تنطلق من المركب والشط تنادينى لاستكمال السباحة كي أنجو من الغرق ، رددوا جميعًا صارخين بأسمى: " فؤاد ضرغام ، فؤاد المدينة ، سوف ينتصر وينجو من الغرق" .

انتهت

يونيو ٢٠١٢

فؤاد المدينة
كرم صابر
رواية
دار وعد للنشر والتوزيع
تصميم الغلاف: أحمد عبدالعزيز



أغادر الشط إلى شوارع المدينة ، متوجهًا إلى المجهول ، أشاهد أخى يمر من وسط السوق ، أقترب منه ، يلمحنى من بعيد ، يرافقه شاب وسيم ، لكنى لا أعرفه ، اعتقدت أنه خطيب ابنته ، ربما كان شريكه الجديد فى المقهى الذى يرغب فى فتحه .



darwaad@hotmail.com
darwaad@gmail.com